أول من صلى إلى الكعبة -1

لما شعر البراء بن معرور بالحرج مما فعله، ومن مخالفته للوفد المرافق له بالصلاة نحو الكعبة، وهم يصلون نحو الشام، طلب من كعب بن مالك رضى الله عنه أن يذهبا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – وكنا لا نعرفه، ولم نره قبل ذلك، فلقينا رجلاً من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – **فقال :هل تعرفانه ؟ فقلنا** : لا. **قال** : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ **قلنا** : نعم.

قال : وقد كنا نعرف العباس، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً.

قال : فإذا دخلتم المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس، قال : فدخلنا المسجد فإذا العباس – رضى الله عنه – جالس، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم– جالس معه فسلمنا ثم جلسنا إليه فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للعباس :" هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ ".

قال : نعم. هذا البراء بن معرور سيد قومه، و هذا كعب بن مالك.

قال :فوالله ما أنسى قول رسول الله– صلى الله عليه وسلم – "**الشاعر؟** ".

قال : نعم، **فقال البراء بن معرور** : يا نبى الله، إنى خرجت من سفرى هذا وقد هدانى الله للإسلام – فرأيت ألا أجعل هذه البَنِيَّةَ منى بظهر فصليت إليها وقد خالفنى أصحابى فى ذلك.

حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء. فماذا ترى يا رسول الله ؟

قال : " قد كنت على قبلةٍ، لو صبرت عليها ".

فرجع البراء إلى قبلة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصلى معنا إلى الشام.

....

كان إحساس البراء بن معرور بشىء فى نفسه، وراء ذهابه مع كعب بن مالك إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – بوصفه المرجعية التى ينبغى الاحتكام

obeikandi.com

إليها ، ومعرفة الصواب من الخطأ فى حضورها ، فراح مع كعب يسألان –صلى الله عليه وسلم – و نلاحظ هنا أن بعض القوم فى يثرب قد سمعوا عنه ولم يروه ، وأسلموا بناء على ما وصل إليهم من أصول الدين و مفاهيمه ، فهما مثلا يسألان رجلاً من أهل مكة كعادة الغرباء حين ينزلون قرية أو مدينة يريدون بعض أهلها فيسألون من يقابلهم فى الطريق ، و يتصّور الرجل أن معرفتهما به ستسهل مهمتهما فى الوصول إليه ، فيسألهما - أتعرفانه ؟ ولكنهما لا يعرفانه و إن كانا يعرفان عمه العباس بن عبد المطلب بحكم أنه كان تاجراً يتردد عليهم فى المدينة وهذه المعرفة سهلت عليهم الوصول إلى الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – لأنه كان يجلس بجوار عمه كما أخبرهم الرجل الذى سألاه عنه .

و نكتشف من حوادث القصة أن المسجد ، والمقصود به هنا الكعبة أو البيت الحرام ، له دور كبير فى حياة الإسلام و المسلمين ، فهو مقر الرسول – صلى الله عليه وسلم وهو بالتالى مصدر الإسلام بعقيدته و تشريعاته ، و إليه يأتى الناس من كل مكان ، ليقابلوا نبى الإسلام – صلى الله عليه وسلم – و يتعرفوا على الدعوة و الداعية .

وسنجد أن المسجد – بعد الهجرة – يتطور دوره ليكون شبيها بمقر الحكم للدولة الإسلامية الجديدة ، و مجلساً للشورى ، ومكانا لأهل الحل و العقد ، و مركزا لاستقبال السفراء والوفود ، ومنطلقا لقرار الحرب و توقيع اتفاقيات السلم والهدنة..

و هاهو البراء و معه كعب يصلان إلى المسجد ، و يجلسان إلى العباس ويجواره النبى – صلى الله عليه وسلم – الذى يسأل عمه عنهما :" هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟"

نلاحظ فى سؤاله – صلى الله عليه وسلم – لعمه العباس نموذجاً للأدب الرفيع فى المخاطبة و السؤال – فهو لا يسأله مستخدما اسمه المجرد ، بل يستخدم الكنية " يا أبا الفضل "، وما زال استخدام الكنية حتى اليوم فى البلاد العربية - أو كثير منها تعبيراً عن الاحترام و التوقير والقرب النفسى من المخاطب .

لقد أجاب العباس ، و عرّف بالرجلين تعريفاً يتجاوز الشخصين إلى مكانتهما . فهذا البراء سيد قومه ، و كعب بن مالك . و يعقب الرسول – صلى الله عليه وسلم على إجابة عمه العباس حين ذكر كعبا بقوله : " الشاعر ؟ " و هذا التعقيب أو تلك الصفة التى سأل عنها الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم ينسها كعب بن مالك .

وقد أقسم على ذلك . وصفة الشاعر بالنسبة للشعراء أغلى من كل الصفات الدنيوية الأخرى ، و سنجد فيما بعد أن كعباً الشاعر سيكون له دور عظيم فى المنافحة عن الإسلام و المسلمين بشعره ، و سيكون مدفعية ثقيلة تدك معاقل الكفر بأبيات الشعر المؤثرة مع عبد الله بن رواحة و حسان بن ثابت رضى الله عن الجميع .

بعد التعارف يعرض البراء بن معرور موضوعه أو مشكلته ، و يقول : فرأيت ألا أجعل هذه البُنية – أى الكعبة – منى بظهر فصليت إليها ، وقد خالفنى أصحابى فى ذلك ، حتى وقع فى نفسى من ذلك شيء ، فماذا ترى يا رسول الله ؟

الرجل يعترف بما حدث اعترافاً دقيقاً ، و يطلب الرأى من الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأنه هو المرجعية التى يحتكم إليها المختلفون . ولأن المسألة مرتبطة بالوحى الذى لم يغيرها ، فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول له :

" قد كنت على قبلة لو صبرت عليها "..أى إنه بطريقة ذكية وبارعة ينبهه إلى خطئه و صواب رفاقه ، و يخبره أن الصلاة إلى الشام هى التشريع الصواب الذى كان ينبغى أن يتبعه . فيعدل البراء عن رأيه حتى تتغير القبلة إلى مكة فيما بعد الهجرة بأمر إلهى يستجيب لعواطف النبى – صلى الله عليه وسلم – ومشاعر المسلمين .

"....فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ...."(البقرة ١٤٤)

**** ****

الإسلام عند الموت - ١

بعث جندب بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - إلى عسعس بن سلامة، زمن فتنة ابن الزبير، فقال: اجمع لي نفراً من إخوانك حتى أحدثهم، فبعث رسولاً إليهم.

فلما اجتمعوا جاء جندب و عليه بُرْنسٌ أصفر، فقال: تحدثوا بما كنتم تحدثون حتى دار الحديث فلما دار الحديث إليه حسر البرنس عن رأسه فقال: إني أتيتكم ولا أريد أن أخبركم عن نبيكم، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين، و إنهم التقوا - فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، و إن رجلاً من المسلمين قصد إلى غفلته.

قال: و كنا نحدث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف، قال: لا إله إلا الله فقتله فجاء البشير إلى النبي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فسأله فأخبره حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع فدعاه فسأله، فقال: " لم قتلته ؟ ".

قال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين، و قتل فلاناً و فلاناً، و سمّى له نفراً، وإني حملتُ عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله.

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أقتلته؟".

قال: نعم. قال: " فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!".....

حديث صحيح أخرجه مسلم و غيره.

....

تعالج هذه القصة أمراً حساساً فى حياة المسلمين ، وهو حرمة الدم الإسلامى و عدم استحلاله تحت أى ظرف من الظروف . فالمسلم له ذات إنسانية مصونة ينبغى ألا يقترب منه أحد بالإهدار إلا بحق ، وليس أى أحد يجوز له أن يقتل مسلما أو يسفك دمه تحت أى دعوى من الدعاوى ، مالم يكن ذلك بحكم قاض يقضى بالقصاص منه لقتل إنسان آخر ، أو كفر بواح فيه محاربة لله ورسوله أو فساد فى الأرض .

و تأكيد حرمة الدم الإسلامى مسألة ممتدة فى كل الأحوال والظروف والعصور وخاصة فى زمن الفتن التى يقتتل فيها المسلمون ، و يسفك بعضهم دم بعض . فكل المسلم على المسلم حرام دمه و ماله و عرضه ، و مطلوب خاصة فى هذه الأيام إعادة التذكير بهذا الحكم الإسلامى الذى يستهين به بعض الناس ، تحت دعاوى مختلفة فيستبيحون الدماء و يستحلون النفوس و يفترون على الله والإسلام مما لم ينزل به وحى أو يتحدث به تشريع .

إن جندب بن عبد الله البجلى – رضى الله عنه – يطلب من عسعس بن سلامة فى زمن فتنة ابن الزبير، أن يجمع نفراً ، أى مجموعة من إخوانه ؛ حتى يحدثهم . وكأن جندب قد استشعر فداحة الفتنة القائمة بين المسلمين على عهد عبد الله بن الزبير – رضى الله عنهما – فيقتل المسلم أخاه المسلم ، و تتقطع الأرحام ، وتسيل الدماء وكل فريق من المتقاتلين يدّعى أنه على الحق و الصواب ، و نسى الجميع أن كل المسلم على المسلم حرام : دمه و ماله وعرضه ، و أن من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقد عصم دمه .

لقد جاء جندب بن عبد الله البجلى ، وهو يرتدى بُرْنساً ، و البرنس هو كل ثوب رأسه ملتصق به دراعة أو جبّة أو نحوهما ، فحسر البرنس عن رأسه ، وقال لمن جمعهم عسعس بن سلامة إنى أتيتكم لا أريد أن أخبركم عن نبيكم – صلى الله عليه

وسلم - بل أردت أن أحدثكم حديثا مفتوحاً من القلب ، ولكنى الآن أريد أن أحدثكم من عند نفسي ، ثم أخبركم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعث بعثاً من المسلمين ، أى فريقاً إلى قوم من المشركين لقاتلتهم ، وكان فى المشركين رجل فائق القدرة ، ويستطيع أن يقتل كل من يقف أو يقع أمامه من المسلمين ، فحاول بعض المسلمين مغافلته لقتله والتخلص منه ، حتى تمكن منه أسامة بن زيد فرفع عليه السيف وحينئذ فإن الرجل المشرك نطق بالشهادة قائلاً : **لا إله إلا الله** ، ولم يعبأ أسامة بهذا النطق ، وهوى عليه بالسيف وقتله !!

رجع المسلمون ، وأخبروا النبى - صلى الله عليه وسلم - بأمر بعثتهم وانتصارهم على المشركين ، وقصوا عليه ، ما كان من أمر أسامة والمشرك الذى أسلم قبل الموت ، وهنا سأل الرسول - صلى الله عليه وسلم - **أسامة بن زيد** :

" **لم قتلته ؟**"والسؤال كما نرى فيه استنكار واستهجان لقتل من قال : لا إله إلا الله ، حتى لو قالها بمجرد اللسان ، ويدافع أسامة عن نفسه قائلاً :

- يا رسول الله ، أوجع فى المسلمين ، وقتل فلاناً وفلاناً ، وسمّى له نفراً وإنى حملت عليه ، **فلما رأى السيف قال** : لا إله إلا الله .

وهنا يأتى الرّد فى استنكار واضح من الرسول -- صلى الله عليه وسلم .

" **أقتلته ؟**"**فيقول أسامة** : نعم .

فيبكّته الرسول - صلى الله عليه وسلم - قائلاً :

" **فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟**".

وكانّ لا إله إلا الله . ستسائل كل من يقتل مسلماً بغير حق ، وستكون خصماً له يوم القيامة تطالب بدمها المهدر وحياتها الضائعة ...

إن هذا السؤال يأخذ بُعداً آخر.

**** ****

الإسلام عند الموت -٢

يستنكر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قتل من ينطق بالشهادة .

و يقول لأسامة بن زيد : فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟! " وهنا يرد أسامة معتذراً :

" يا رسول الله ، أستغفر الله .

قال :" وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟".

قال : فجعل لا يزيد على أن يقول : كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟"

و يحكى أسامة بن زيد – رضى الله عنه – القصة فيقول :

بعثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى الحرقة من جهينة ، فصبحنا القوم فهزمناهم ، و لحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، **قال** :

فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكّف عنه الأنصارى ، و طعنته برمحى حتي قتلته .

قال : فلما قدمنا بلغ ذلك النبى – صلى الله عليه وسلم – **فقال لى** :

" يا أسامة ، أقتلته بعدما قال : لا إله إلا الله ؟! "

قال : قلت يا رسول الله إنما كان متعوذاً .

فقال : أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟!!"

قال :فما زال يكررها علىّ حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم .

وفى رواية :" أفلا شققت عن قلبه حتى نعلم أقالها أمن لا ؟!".

....

تشير القصة النبوية إلى استنكار الرسول – صلى الله عليه وسلم – لقتل من يقول لا إله إلاّ الله ، و يدرك أسامة غضب الرسول –صلى الله عليه وسلم – من فعلته فيعتذر ويقول : " **يا رسول الله ، أستغفر الله** ".

فيكرّر الرسول – صلى الله عليه وسلم – استنكاره لقتل من يقول لا إله إلا الله قائلاً :" و كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟! " و يتكرر هذا التساؤل الاستنكارى الرافض لقتل النفس البشرية بغير حق .

و هو ما يؤكده أسامة بن زيد فى سرده للقصة بنفسه ، حيث يصف بالتفصيل أحداث القصة كما يذكر أو يحدد مكانها الدقيق وهو الحُرقة من جهينة . لقد هزم المسلمون القوم ، ولحق أسامة مع رجل من الأنصار رجلاً من القوم المهزومين ، فلما لحقا به أو غشياه ، نطق بالشهادة فكّف عنه الأنصارى أى توقف عن ملاحقته و قتله . أما أسامة فلم يتوقف ، ولاحقه و طعنه برمحه حتى قتله .

إن أسامة يسرد أحداث قتل الرجل كما جرت ، وقد عرف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخاطب أسامة وفقا لرواية أسامة قائلاً :

" يا أسامة ، أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ؟!".

فرد عليه أسامة :" يا رسول الله إنما كان متعوّذاً " ، أى قال لا إله إلا الله لكى لا أقتله .أو ليحفظ دمه .

ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذى أغضبه قتل إنسان يعلن الشهادة ولو بلسانه يكرر السؤال مستنكراً ما فعله أسامة .

" أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ !! "

وما زال يكرر سؤاله الإنكارى حتى تمنى أسامة أن لم يكن قد أسلم قبل ذلك اليوم لإحساسه بفظاعة فعلته ، التى فعلها بحسن نية ظناً منه بأن الرجل نطق بالشهادة تقيه و خوفا من الموت .

إن الرواية الأخرى للحديث التى تقول على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطبا أسامة " أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ ": تؤكد على أن المسلم يجب ألا يأخذ الناس بغير الظاهر ، أما الله فيتولى السرائر. يجب ألا نحاكم أحدا على نواياه المخبوءة بل نحاسبه على كلامه و أفعاله التى تصدر عنه علناً و بإرادته الحرّة أيضاً .

نحن لسنا مأمورين بالتفتيش فى أعماق القلوب و النفوس ، ولكننا نحكم على الأقوال و الأفعال التى نسمعها و نشاهدها ..

و إلاّ لو حكمنا بالنيات المخبوءة فإن الناس يقتل بعضهم بعضا هذا يرانى كافرا و أنا أراه كافرا ، فأبيح له أو أبيح لنفسى أن أقتله و يقتلنى ، و يتحول نظام المجتمع إلى فوضى و دم وخراب و العياذ بالله .

لقد حذر القرآن الكريم من القتل ، و صور لنا من يقتل نفساً بغير حق أو فساد فى الأرض كأنما قتل الناس جميعاً .

قال تعالى : "...مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ..." (المائدة :٣٢)

و تأمل قول الله تعالى :

"...وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا .."

لترى أن الإسلام دين الحياة و دين الرحمة .. أين ذلك من الذين يستبيحون حياة الناس و حرماتهم تحت ذرائع مختلفة ليست من الدين ؟

إن الحفاظ على حياة الناس أصل من أصول الإسلام ، لدرجة أنه يحذر من استخدام أية آلة يمكن أن تصيب أحداً دون قصد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مرّ فى مساجدنا ، أو أسواقنا ومعه نَبْلٌ فليمسك ، أو ليقبض على نصالها بكَفّه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء ، هو حديث متفق عليه ، ويبين لنا إلى أي مدى يحرص الإسلام على حياة الناس ودمائهم ؛ فالذى يمشى و معه سهم يجب أن يقبض على حديدتها أو رأسها حتى لا تصيب أحداً بمكروه سواء كان فى المسجد أو الشارع أو السوق أو أى مكان آخر.

**** ****

الصحابة و الحمى -١

تروى أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - فتقول : لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة وهى أوبأ أرض الله من الحمى . فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه - صلى الله عليه وسلم .

قالت : فكان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، و بلال مواليا أبى بكر مع أبى بكر فى بيت واحد . فأصابتهم الحمى ، فدخلتُ عليهم أعودُهم ، و ذلك قبل أن يُضرَب علينا الحجاب ، و بهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك ، فدنوت من أبى بكر ، فقلت له : كيف تجدك يا أبت ؟

فقال :

كل امرىء مصبح فى أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

فقلت والله ما يدرى أبى ما يقول . ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة ، فقلت له : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدتُ الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرىء مجاهد بطوقه ... كالثور يحمى جلده بروقه

فقلت : والله ما يدرى عامر ما يقول ، قالت : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ، ثم رفع عقيرته ، فقال :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بفج وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل يبدونَّ لى شامةٌ وطفيل...

(حديث صحيح ، أخرجه مالك و البخارى و مسلم وغيرهم)

....

هذه القصة النبوية تكشف لنا جانبا من جوانب الابتلاء التى ابتلى بها المسلمون فى أوائل عهدهم بالهجرة . و هذا الجانب يتمثل فى الوباء الذى

أصاب المدينة المنورة و أهلها . و كانت الحمى ضيفاً ثقيلاً أصاب الصحابة رضوان الله عليهم و صرفه الله عن نبيه - صلى الله عليه وسلم .

و الحمى أو المرض عموماً يمثل اللحظة الحقيقية التى يعود فيها الإنسان إلى ذاته ليكتشف ضعفه و هوانه . إنه فى حال الصحة و العافية ينسى كثيراً من البديهيات ، وبعض الناس ينسى دينه و إيمانه و العياذ بالله - فيتجبر فى الأرض و يطغى على غيره من البشر ، ويظلم و يعربد ، و يظن أن الحياة ستظل هينة لينة رخاءً ليفعل ما يريد دون صعوبات أو معوقات .. ولكن المرض يعيده إذا كان ذا فطرة سوية و نفس نقية إلى الحقيقة التى تناساها ، و الحق الذى تجاهله فى غمرة قوته و عافيته فيجد نفسه ضعيفاً لا يقدر على شىء ، بل إنه أحياناً لا يستطيع أن ينتقل من موضع نومه أو مجلسه و يرى أنه محتاج إلى غيره ليساعده أو يعينه على بلائه الذى أصابه .

و هنا تكون العظة و الاعتبار " إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب " فاعتبروا يا أولى الألباب " .. فهناك قوة سرمدية ، أبدية أزلية ، يجب ألا نغفل عنها وهى الله جل و علا .

و عائشة رضى الله عنها تروى ما أصاب الصحابة من حمى المدينة ، و تقدم لنا حال بعض أسرتها الذين أصابهم المرض . أبوها أبو بكر ، و بعض مواليه: عامر بن فهيرة و بلال بن رباح ؛ رضى الله عنهم أجمعين .. كل منهم أصيب بالمرض، و صار قعيد البيت لا يبرحه ولا يغادره و انعكس المرض على كل منهم يذكره بالموت، و التذكار بالموت يعنى اكتشاف صلابة الإيمان و قوة اليقين ، ثم وهو الأهم الرضا بالقدر ، و الاستعداد للقاء الله .

إن أبا بكر يجيب عائشة ابنته وهى تسأله عن حاله : كيف تجدك يا أبت ؟ بقول الشاعر الذى يصوغ الحياة فى بيت محكم من الشعر يؤكد حقيقة يتناساها الناس فى غمرة الحركة اليومية :

كل امرىء مصبح فى أهله و الموت أدنى من شراك نعله

إن الموت قريب من الإنسان قرباً شديداً ، حتى لو تجاهله أو تغافل عنه ، ومثلما هى المسافة بين شراك النعل أو السير الذى يربط النعل على ظهر القدم ، وصاحب النعل قريبة للغاية . فالموت أيضاً قريب للإنسان قرباً شديداً .

تظن السيدة عائشة – رضى الله عنها أن أباها يهذى ، ولا يدرى ما يقول من شدة المرض أو الحمى فتذهب إلى مولاه عامر بن فهيرة ، وكان مسموحاً لنساء النبى – صلى الله عليه وسلم – فى ذلك الحين بالتحدث إلى غير بيت النبوة والظهور أمامهم ، قبل أن تنزل آية الحجاب فى تشريع خاص بهن " ..

".....وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ..."(الأحزاب : ٥٣)

إن عائشة تجد عامراً فى الحال نفسها التى رأت والدها عليها ، وهو يقول :

لقد وجدتُ الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرىء مجاهد بطوقه ... كالثور يحمى جلده بروقه

و يحمى جلده بروقه أى بقرنه . و الأرجوزة تؤكد على حضور الموت و قربه من الإنسان ، و فناء الدنيا الحتمى ، وهو ما يؤكده بلال رضى الله عنه أيضا ، حين يرفع صوته أو عقيرته حين تخف عنه الحمى ، فتسمعه عائشة يقول حالماً بالحياة وآملاً ..و إن كان يأس الحمى يستبعد الحلم و الأمل و يؤكد على الموت :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بفج و حولى إذ خر و جليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل يبدونْ لى شامةٌ و طفيل...

و الفج موضع بمكة ، و يقال إنه اسم واد دفن به عبد الله بن عمر ، و الإذخر و الجليل من النباتات ذات الرائحة الطيبة . أما مياه مجنة و شامة و طفيل فهى مواضع و كلها ترد على ذهن بلال المريض بالحمىّ الذى يستبعد الشفاء ورؤيتها من جديد .

**** ****

الصحابة و الحمى -٢

روت عائشة رضى الله عنها ما أصاب الصحابة من الحمى فى المدينة، وكشفت لنا مشاعر الموت و اليأس من المرض التى اعترت والدها أبا بكر و صاحبيه من الموالى : عامر بن فهيرة و بلال بن رباح رضى الله عنهم أجمعين .

قالت عائشة رضى الله عنها : فذكرت لرسول الله – صلى الله عليه وسلم ما سمعت منهم ، فقلت : إنهم ليهذون ، وما يعقلون من شدة الحمى .

قالت : فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

" اللهم حبّب إلينا المدينة ، كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مُدّها وصاعها وانقل وباءها إلى مهيعة ".

و **يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما** : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم – لما قدم المدينة ، هو و أصحابه أصابتهم حمى المدينة حتى جهدوا مرضاً وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه – صلى الله عليه وسلم – حتى كانوا ما يّصلون إلا وهم قعود .

قال : فخرج عليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهم يصلون كذلك ، **فقال لهم** :" **اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم** "

قال : فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف و السقم التماسَ الفضل ".

....

الابتلاء سنة من سنن الله فى خلقه ، لمعرفة مدى صبرهم و احتمالهم ، واختبار صلابة إيمانهم و قوة يقينهم . ضعاف الإيمان يصيبهم الهلع و الرعب وينهارون سريعاً .

أما أقوياء الإيمان فيرّدون كلّ شىء إلى الله ، و يسلمون بقدر الله ، و يطلبون منه العون و السداد .

قال تعالى :"وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ "(البقرة ١٥٥-١٥٧)

و قال تعالى : "لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ "(آل عمران : ١٨٦)

والحمى التى أصابت الصحابة فى المدينة جعلتهم يتذكرون الموت أو ييأسون من الحياة ، والمشاهد التى رأتها عائشة رضى الله عنها لأبيها وعامر بن فهيرة و بلال بن رباح ، جعلتها تنقل ذلك إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وتصف أقوالهم بالهذيان ، و أن الحمى أفقدتهم عقولهم .

و نرى تعليق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على ما قالته عائشة يتجه فى مسار آخر ، يتناول المدينة وطناً للمسلمين ، والدعاء بنقل الوباء إلى مكان آخر .

إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يدعو ربه قائلاً :

" اللهم حبّب إلينا المدينة ، كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مُدّها وصاعها ، وانقل وباءها إلى مهيعة ".

هذا الدعاء يشير إلى حبّ النبى – صلى الله عليه وسلم – لوطنه الأصلى مكة و يرّد على الذين يقولون إن الإسلام يتناقض مع الوطنية . فحب الأوطان و التمسك بها والدفاع عنها جزء من الإيمان ، ومن يفرط فى وطنه أو يقدمه للأعداء دون دفاع هو خائن لله ورسوله ، فالوطن هو أرض الإسلام التى ينبغى ألاّ يفرط فيها مسلم تحت أى ظرف من الظروف .

و النبى – صلى الله عليه وسلم – يطلب من ربّه أن يحبّب إليه و إلى الصحابة المدينة مثلما حبب إليه مكة أو أشد ، فهى البلد الذى آوى و نصر ،

وهى البلد الذى أولياؤه أولياء بعض ، مع ما أصابها من الحمّى ؛ يرجو أن يكون حبها مستمرا على أن يبارك فى قليلها و كثيرها أو حسب تعبيره – صلى الله عليه وسلم – مدّها و صاعها ، والمدّ والصاع من مكاييل الحبوب و نحوها ، والمد ربع الصاع ، و الصاع يبلغ نحو خمسة أرطال ، أى ما يزيد على اثنين من الكيلوات قليلاً بموازيين عصرنا ، و الرسول – صلى الله عليه وسلم – يطلب من ربه أن ينقل وباء المدينة إلى مهيعة أى الجحفة ، وهى موضع على طريق المدينة و كانت آنئذ يجتنبها الناس ، لأن ماءها كان يصيب من يشربه بالحمى ..

لقد كان ابتلاء المسلمين فى المدينة بالحمى تجربة شديدة ، ولكنهم تحملوها بصبر ورضاً .. أجهدتهم إجهاداً شديداً حتى إنهم كانوا لا يقدرون على أداء الصلاة وقوفاً ، فكانوا يؤدونها وهم قعود . وقد أخبرهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن فضل صلاة القاعد يساوى نصف فضل صلاة القائم ، وهو ما حفزهم على مغالبة مرضهم و تحمل أو تجشم الصلاة وهم وقوف على ماهم فيه من جهد و مشقة و مرض ..حرصاً على نيل ثواب الصلاة كله ، و فضلها كله ..

ولا شك أن الله سبحانه رءوف رحيم بعباده ، هو أرحم بهم من الأم بولدها ولا يكلّفهم ما لا طاقة لهم به ، ولكن القصة النبوية تشير إلى حرص المسلمين على أداء الصلاة فى صورتها المثلى لينالوا الفضل كله بإذنه تعالى .

ولا يعنى الصلاة قاعداً أنها غير مقبولة ، بل هى مقبولة إن شاء الله مادام صاحبها من ذوى الأعذار و الضرورات ، ولكن التشريع يحّض المسلم على الأداء الكامل للعبادات طالما أمكنه ذلك ولو فى شىء من المشقة ؛ ونحن نعلم أن صلاة النافلة تجوز من قيام وقعود للمريض و السليم على السواء ، ولكن صلاة القائم تفضل صلاة القاعد .. فاللهم اشف مرضانا وارحم موتانا ، وأهلك أعداءنا ، ولا تخيب رجاءنا ، ونجنا برحمتك من القوم الظالمين .

ألف دينار فى البحر

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :- " إن رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يُسْلفه ألف دينار. فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم .

فقال : كفى بالله شهيدا .

قال : فائتنى بالكفيل ..

قال : كفى بالله كفيلا .

قال : صدقت . فدفعها إليه إلى أجل مسمّى ، فخرج فى البحر ، فقضى حاجته . ثمّ التمس مركباً يركبها يقدم عليه للأجل الذى أجّله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار، و صحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زجّ موضعها ، ثم أتى بها إلى البحر ، فقال :اللهم إنك تعلم أنى تسلّفت فلاناً ألف دينار ، فسألنى كفيلاً ، فقلت . كفى بالله وكيلاً ، فرضى بك ، و سألنى شهيداً . فقلت : كفى بالله شهيداً ، فرضى بك ، و إنى جَهدتُ أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له فلم أجد ، وإنى أستودعُكها ، فرمى بها إلى البحر حتى وَلَجَتْ فيه ، ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده . فخرج الرجل الذى كان أسلفه، ينظر لعل مركباً قد جاء بماله ، فإذا بالخشبة التى فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها وجد المال و الصحيفة . ثم قدم الذى كان أسلفه ، فأتى بالألف دينار وقال :- و الله ، مازلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت به .

قال : هل كنت بعثت إلى شيئاً؟

قال : أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئتُ فيه .

قال : فإن الله قد أدّى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشداً ".

(أخرجه البخارى ، و أحمد ، و البيهقى)

تحمل القصة التى وردت فى الحديث الشريف عناصر الحكى القصصى بما فيها من تشويق يصنعه تسلسل الأحداث ، و متعة يقدمها البناء القصصى حتى يصل القارئ أو السامع إلى نهاية القصة .

فهنـاك الحـدث أو الفكرة التى تتمثل فى قيام رجل من بنى إسرائيل بالاقتراض من رجل آخر مبلغ ألف دينار ، ويحاول الأول ردّ هذا المبلغ إلى الدائن أو المقرض فتعجزه الوسيلة ، فيضطر إلى إرسالها عن طريق خشبة يلقى بها فى البحر . حيث أخذ خشبة فنقرها : أى حفرها ، وصنع تجويفاً بداخلها يتسع للمال الذى اقترضه من الرجل مع رسالة تحمل اسم صاحب الدين . ثم زجج موضعها : أى سمّرها بمسامير كالزجّ لتكون محكمة الإغلاق فتنجو من رشح الماء الذى يمكن أن يفسدها بالبلل.ثم رمى بها إلى البحر حتى ولجت فيه ، أىّ دخلت فى البحر ، وعامت على سطحه ليحملها الموج إلى المكان المتوّقع إذا شاء الله . فقد جَهِد أن يجد مركباً : أى بذلّ غاية جهده لعله يجد مركباً يحمله إلى صاحب الدين حتى يؤديه إليه . وشاءت إرادة الله أن تصل الخشبة إلى صاحب الدين الذي أراد أن يتخذها وسيلة للتدفئة ، ولكنه عند نشرها : أى قطعها بالمنشار حتى يستخدمها وقوداً و حطباً يشعل فيه النار وجد المال والرسالة .

وهناك الزمان الذى تجرى فيه أحداث القصة ، وهو زمن بنى إسرائيل أى فى عصر بعيد ضارب فى القدم ، وهو زمن له دلالته فى سياق القصة حيث يشير إلى طبيعة الأخلاق و ثباتها لأنها مرتبطة بخصائص الإنسان و سلوكه فى كل زمان، فالإنسان لا تتغير خصائصه بتغير الزمان ولا تتغير قيمة النبيلة أو غير النبيلة بمرور الأيام ، فالخير هو الخير ، و الشر هو الشر ، وإن تغيرت الوسائل و الغايات .

وهناك المكـان الذى يشمل البحر و المركب و الخشبة . و البحر يشير إلى محيط كبير يتحكم فى حياة الناس أو يرتبط بها إلى حد كبير ففيه رزقهم ومعاشهم. يعطيه اللحم الطرى ، و ينتقلون فوقه من مكان إلى آخر عبر المركب والسفن ، كما تطفو فوقه الكائنات و الجمادات التى لا تغطس أو لا تغرق ، و كانت الخشبة

والمركب فى قصتنا مكاناً يطفو فوق الماء و يحمل بعض أطراف القصة أو أحداثها من موضع إلى آخر.

المركب تحمل المدين ، و الخشبة تحمل الدين - و المكان هنا يشير إلى اتساع الحياة باتساع البحر و يحدّد الحقوق كما تتحدد مساحة السفينة و الخشبة .

أما الشخصية القصصية - كما رأينا - فهى شخصية مبهمة منكّرة " رجل من بنى إسرائيل " ، و ذلك للدلالة على شيوع أمر " **المداينة** " بين الناس ، واحتياج كل شخص إلى غيره من الناس يقترض منه أو يقرضه مساعدة و تضامنا وتكافلاً و حلاً للمشكلات .

و الرجل الأول فى القصة (**المقترض**) يشبه الرجل الآخر (**المقرض**) فلا اسم لهما ولا مميزات ولا صفات إلا نسبتهما إلى بنى إسرائيل و عصرهم .

و يقوم الحوار بجلاء فكر الشخصية القصصية و تصوّرها عن المداينة وارتباطها بالإيمان العميق و الوثيق بالخالق جلّ و علا . فالرجل المقترض يطلب من صاحبه أن يسلفه ألف دينار . و هذا يطلب شاهداً فيقنعه بأن الله خير الشاهدين "**كفى بالله شهيدا**" ثم يطلب منه كفيلاً ، فيقنعه بأن الله خير الكافلين " **كفى بالله كفيلا** " ، **وحينئذ يقول له** : صدقت . إنه حوار موجز مكثف يبرز إيمان الرجلين ، الدائن و المدين و ثقتهما المطلقة فى الله سبحانه و تعالى شهيداً و كفيلاً لا يضيع الحقوق ولا يهدرها مهما حاول الناس إخفاء الحق أو طمس ملامحه ، فهناك من يرى و يسمع و يهيمن بقدرته على جميع المخلوقات فلا يظن أحد أنه يمكن أن يهرب بحق من حقوق الله .

و كما نرى فى سياق القصة نجد عقدتها تتمثل بالتدريج فى **الإقراض** دون شاهد أو كفيل إلا الله ، فالناس كما جرت العادة يُشهدون على معاملاتهم ، ويأتون بضامن يضمن ديونهم ، ولكن الرجلين ارتضيا عن إيمان أن يكون الله شهيداً و كفيلاً ..

ثم تزداد العقدة إحكاماً وقوة حين يعتزم المدين ردّ الدين ، فلا يجد مركبا أو سفينة تحمله إلى بلد الدائن أو المقرض وحين ييأس من وجود من يوصل الدين إلى صاحبه ، يفكّر بإرساله داخل تجويف خشبة يلقيها فى الماء ، واثقاً فى الله ومسلّماً إليه الأمر :" اللهم إنك تعلم أنى تسلّفت فلاناً ألف دينار، فسألنى كفيلاً ، فقلت : كفى بالله وكيلاً . فرضى بك .

وسألنى شهيداً ، فقلت كفى بالله شهيداً ، فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له فلم أجد " وإنى أستودعكها .. فرمى بها إلى البحر ، حتى ولجت فيه ثم انصرف .."

وكأن القارىء أو المستمع يتشوق لمعرفة هل ستصل الخشبة إلى الدائن ويعثر على ما فيها من أمواله ؟ أو إنها ستذهب مع الموج إلى مكان آخر لا يعرفه أحد ، أو إنها ستصل إلى يد شخص آخر لا علاقة له بالدائن أو المدين ؟

هنا نجد القصة تقدم لنا صورة المدين وحرصه على تسديد دينه ، ولو اضطر إلى ذلك مرتين .. فها هو بعد أن وضع دينه فى الخشبة التى ألقاها فى الماء ، يجد مركباً يركبه حتى يصل إلى الدائن ، ويعتذر إليه عن تأخره عن الأجل المحدد للسداد بسبب عدم وجود مركب يركبه فى الفترة الماضية ، ولكن الدائن المؤمن الذى رضى بالله كفيلا وشهيدا لا يستخفه الطمع ، ولا تغريه الدنيا ، فيحاول أن يستفسر من صاحبه :" هل كنت بعثت إلىّ شيئاً ؟ "

ولكن المدين المؤمن الحريص على سداد دينه ، لا يجيب مباشرة بما فعله من تجويف للخشبة ووضع المال فيها وإلقائها فى المال ، ولكنه يجيب بما يشبه الاعتذار:" أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئتُ فيه "

وهنا تتجلى روعة الإيمان الموصول بالله والخوف منه ، فيقول له الدائن :" فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشداً ".

و هكذا تنحلّ عقدة القصة وفقا لمفهوم إيمانى يميّز طرفى القصة ، ويحرص كل منهما على الوفاء بحق صاحبه : دَيناً أو اعترافاً بسداده .

إن الشرائع الإلهية حريصة على توفير العلاقات الإنسانية الطيبة فى المجتمعات وأساس هذه العلاقات هو المعاملة الطيبة ،وهذا من أبرز معطيات القصة ؛ فالدين المعاملة كما علمنا الإسلام الحنيف والمعاملة الطيبة تقضى من القادر مساعدة العاجز ، والقوى مساعدة الضعيف ، والغنى مساعدة الفقير .

• **هذا الالتزام الخلقى** الإنسانى تجاه الآخرين ممن يحتاجون إلى العون والمساندة يمّتد إلى الالتزام والوفاء بالعقود والاتفاقات والمواثيق ، وهو ما رأيناه بين المدين والدائن ، فالمدين حريص على الوفاء بالتسديد فى الأجل المحدد ، والدائن لم يستغل فرصة وصول الخشبة و إخفاء الحقيقة عن صاحبه الذى أبدى استعداداً لتسديد الدين مرّة أخرى لعلمه أن الطريقة الأولى للتسديد لم تكن طبيعية ولم تكن مؤكدة .. قارن هذا بما يحدث الآن من فساد بعض الذمم والنفوس ، وانظر إلى عدد القضايا المرفوعة فى المحاكم و أقسام الشرطة بسبب الشيكات التى لم تسدد و إيصالات الأمانة التى لم تدفع و الوعود التى لم تنفذ ..

ولنا أن نتخيل أثر ذلك على السمعة و الثقة و حركة التعامل بين الناس .

• **إن الأمانة فى التعامل هى** أساس التجارة والعلاقات الإنسانية الاجتماعية ولذلكم نجد أن الالتزام الدينى مما يجعل الناس يرددون دائما : الدين المعاملة .

و **يعطينا الحديث ملمحاً أساسيّاً من** ملامح التعامل بين الناس وهو ضرورة الإشهاد والتوثيق فى معاملاتنا مع الالتزام الدينى و الخلقى .. فعند المداينة أو المبايعة لابد من الكتابة والتوقيع و الإشهاد و التوثيق ، حتى لا تضييع الحقوق عند تغير الظروف و تحوّل النفوس .

قال تعالى فى آية المداينة وهى من أطول آيات القرآن الكريم :

"يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ ....."(البقرة :٢٨٢)

و قال تعالى :

"يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ....."(المائدة :١)

و هـذه الآيـات و غيرها تدلنا على ضرورة تسجيل المعاملات و توثيقها بالشهادة مع الوفاء بها ، حتى لا يحدث خلل فى التعامل بين الناس .

و يجب أن يتأكد المسلم ، عميق الإيمان ووثيق الصلة بالله ، من أن الله شهيد على كل التعاملات و السلوكيات و النوايا ، وهو أيضاً الضامن و الكفيل الذى لا يضيع الحقوق ، وقدمت لنا القصة نموذجاً حيّاً ، و مثالاً حاضراً ، عندما وصلت الخشبة إلى صاحب الدين فتسلمه ، وهذا يؤدى بنا إلى معطى آخر من معطيات القصة وهو أن حبل الله موصول إذا انقطعت الأسباب بين الناس .

بعض الناس يظنّون أنهم فقدوا الأمل أو فقدوا الأسباب بما يريدون ، ولكن الله سبحانه – وهو المهيمن القادر القوى – يصل حباله بمن يؤمن به ، ولا يضيعه .

إن القصـة الـتى وردت فى الحديث الشريف تقدم لنا صورة مضيئة للتعامل الإنسانى القائم على الالتزام ، و مراقبة الله ، و الخوف منه ، ورفض الانحراف مهما كانت المغريات و المخاوف .

و صدق الله إذ يقول : "....وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا "(الطلاق :٢)

"....وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا "(الطلاق :٤)

**** ****

جبريل عليه السلام يعلّم الصحابة

عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال :

بينما نحن جلوس عند رسول الله – صلى الله – صلى الله عليه وسلم – ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ،وقال :

- يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- الإسلام : " أن تشهد أن لا إله إلا الله ، و أن محمداً رسول الله ، و تقيم الصلاة و تؤتى الزكاة ، و تصوم رمضان ، و تحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ".

قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله و يصدقه :.

قال : فأخبرنى عن الإيمان .

قال : أن تؤمن بالله ، و ملائكته ، و كتبه ، ورسله ، و اليوم الآخر ، و تؤمن بالقدر خيره و شرّه .

قال : صدقت .

قال : فأخبرنى عن الإحسان ..

قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : فأخبرنى عن الساعة ..

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

قال : فأخبرنى عن أماراتها .

قال : أن تلد الأمة رَبَّتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعاءَ الشاءِ يتطاولون فى البنيان .

ثم انطلق فلبثت مليّاً . ثم قال :

- يا عمر! أتدرى من السائل ؟

قلت : الله و رسوله أعلم .

قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ".

أخرجه : مسلم و أحمد و أبو داود و الترمذى و النسائى و البيهقى .

....

أول عناصر القصة هنا هو الحدث أو الموضوع ، و يدور حول سائل يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن عدة أمور ، هى الإسلام و الإيمان و الإحسان وعلامات الساعة و يبدأ الحدث بوصول السائل و إلقائه الأسئلة و تصديقه بإجاباتها التى يقدمها له الرسول – صلى الله عليه وسلم – في قوله " تشهد أن لا إله إلا الله ....الخ " أى تقرّ و تعترف بوحدانية الله – جل و علا ورسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – و بقية أركان الإسلام ، و " تقيم الصلاة " أي تواظب على إقامتها كاملة الشروط و الأركان ، ووتؤتي الزكاة . وتصوم رمضان وتحج البيت : " إن استطعت إليه سبيلاً " ، و المقصود بالاستطاعة هنا : القدرة على السفر و امتلاك متطلباته من طعام و شراب و مصروفات و قوة تحمل لمشاقه وصعوباته .ويصدق السائل على ذلك فيتعجب الصحابة من ذلك ، فيسأله عن الإيمان ؛ فيجيبه : تؤمن بالله : أى تؤمن بوحدانيته – لا شريك له – و تعبده وحده دون سواه . وملائكته وكتبه : أى الكتب المنزلة مثل التوراة والإنجيل و القرآن ؛ ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ؛ أى ما قضى الله به على عباده و قدر حدوثه لهم . فيصدقه السائل . ويسأله عن الإحسان فيجيبه . والإحسان يقصد به إتقان العبادة و كمالها . " كأنك تراه " يقصد به أقصى درجات الراقبة فلا تفعل إلا ما يحّب وتنتهى عما لا يحّب .

ويسأله عن الساعة فيجيبه بأن المسئول وهو النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يعلم عنها إلا ما يعلمه السائل ، فيطلب منه معرفة علاماتها أو أماراتها أو الإشارات الدالة عليها، فيخبره أن تلد الأمة ربتها ، والأمة : أى المرأة الرقيق المملوكة لغيرها وفقا للنظام الدولى الذى كان سائداً قبل نزول الوحى . ويقصد بقوله "ربتها" ، أى سيّدتها ؛ كناية عن انقلاب الأوضاع الاجتماعية ، ومن علامات الساعة أيضا تطاول الرعاء في البنيان..ونعلم من الحدث بعد أن لبث عمر مليا وانتظر بعض الوقت عقب انصراف السائل أنه كان جبريل عليه السلام .

وثانى هذه العناصر ، هو الشخصية القصصية ، وتبدو لنا منذ بداية الحديث حتى قرب تنهايته شخصية غير معروفة ، أو غريبة على المكان و أهله ، ولكن القصة تقدمه لنا فى صورة رجل شديد بياض الثوب ، مما يدل على علوّ مكانته و أصالة منبته ، ثم إن له من صفاته الجسدية شدة سواد شعره ؛ وهناك أيضا صفات معنوية له : فهو غير مسافر ولا يعرفه أحد . والعادة أن يكون غير معروف لدى الناس ، قادماً من سفر ، وتبدو عليه علامات المسافر من رهق و تعب و غير ذلك ، ولكن شخصيتنا مع وجودها الغريب أمام الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة رضوان الله عليهم ، لا تبدو عليهم علائم السفر بل ترتدى ثوباً شديد البياض ، وهو ما يشوق إلى متابعتها والتطلع إلى معرفة من هى ؟

و ثالث عناصر القصة هو الحوار ، و طبيعى أن تعتمد القصة هنا على الحوار فهناك سائل يسأل ، و مجيب لابد أن يجيب ، ومن خلال السؤال و الإجابة تنمو المعلومات المراد إيصالها للسامعين ، فضلاً عن السائل نفسه ، و يدور الحوار الذى يكشف عن أهمية المتحاورين و أهمية الموضوع حول أركان الدين و مقوّماته ، بحيث يكون المسلم على أحسن صورة فى إيمانه و معتقده و اتصاله بالخالق المعبود جل و علا .

ورابع العناصر البارزة فى القصة هو ما يتعلق بالذروة والختام أوالنتيجة فقد جاء الرجل ليسأل ثم يسأل ثم يسأل . دون أن يعرفه الصحابة ، و بعد أن انصرف الرجل ؛ مكث و كأنه ينتظر ليعرف من هو هذا الرجل الغريب الذى لا تبدو عليه علامات السفر ، فإذا بالرسول صلى الله عليه وسلم يفسّر الأمر لعمر ، ويخبره أنه الذى كان يسأله هو جبريل عليه السلام ، جاء على هيئة رجل شديد بياض الثوب ، شديد سواد الشعر ليعلّم الصحابة رضوان الله عليهم أمور الدين عن طريق الحوار مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

تعطينا هذه القصة أكثر من معطى ، فهى تفرق بين مستويات عديدة للعقيدة فالإسلام مرحلة من مراحل العقيدة تليها مرحلة الإيمان تليها مرحلة الإحسان ، الإسلام أولى درجات الدين بإقامة أركانه الخمسة : الشهادتين و الصلاة و الصيام والحج لمن استطاع إليه سبيلاً .

و الإيمان إقامة التوحيد عن تسليم قلبى خالص مع الإيمان بالله و ملائكته و كتبه ورسله و اليوم الآخر ، و القدر خيره و شرّه .

قال تعالى :

"قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ....."(الحجرات :١٤)

و فى هذه الآية الكريمة بيان للفارق بين الإسلام و الإيمان . الإسلام تظهره أعمال الجوارح بالقول و السلوك ، أما الإيمان فهو الاطمئنان القلبى و الاستسلام بالطاعة لله ورسوله . وقد وردت معظم أركان الإيمان فى قوله تعالى :

"ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ....."(البقرة :٢٨٥)

و تعطينا القصة إجابة ما عن موعد الساعة أو القيامة ، فمعرفة هذا اليوم و تحديده سرّ من أسرار الحق سبحانه و تعالى اختص به نفسه دون خلقه ، ولكن هناك علامات من علاماته تشير إليه و إلى اقترابه .

قال تعالى :

"يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ ..."(الأحزاب :٦٣)

و قال تعالى : "إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ....."(فصلت ٤٧)

و قال تعالى : "....وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا "(الأحزاب ٦٣)

ومع ذلك فإن القصة تشير إلى أن للساعة علائم و مقدمات تدل على اقترابها ، منها ما ورد فى الحديث الشريف أو القصة النبوية كأن تلد الأمة ربتها ، أى تصير الأمة المسترقّة سيدة صاحبتها التى اشترتها و أنفقت عليها ، و هذا كناية عن انقلاب المواضعات الاجتماعية . و فقدان الاحترام المتبادل ، و حلول الاستعلاء المرذول بدلاً من التواضع المحمود .

قال تعالى على لسان لقمان عليه السلام لابنه يوصيه :

"وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ "(لقمان : ١٨-١٩)

ومن أمارات الساعة أيضاً أن ترى الحفاة العراة العالةَ رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان . و" الرعاء" يقصد به الرعيان الذين يرعون الإبل و الماشية ونحوها و قوله الشاء : يقصد به الشياه . وقوله " يتطاولون فى البنيان " يقصد به المفاخرة و المباهاة ، وكلمة " التطاول" هنا ، فيها معنى الافتعال و الادعاء، لذا فالتطاول فى البنيان ، يشير إلى ما يحاوله بعض الناس من ارتقاء مواضع ليست لهم ، و ادعاء درجات أو مناصب لا يستحقونها ، أو مكانة لا يستحقونها –

بحكم تواضع قدراتهم ومواهبهم وإمكاناتهم ، ولا يظنن أحد أن الإسلام يقلّل من قيمة أحد ، أو يعبّر عن عنصرية تجاه بعض الأفراد في المجتمع ، أو يحتقر بعض المهن والأعمال ، فهو الذى جعل الناس سواسية كأسنان المشط ، والمفاضلة بينهم تقوم على أساس التقوى ، وهو يشيد بكل عمل شريف يأتى من الكّد والكدح والعرق، وكان نبى الله داود يأكل من عمل يده .

و القصة التى بين أيدينا تجعل انقلاب الأوضاع دليلاً على قيام الساعة، لأن الأمور صارت غير طبيعية ، حيث ارتقى الأدنى مكانة الأعلى دون حق، و نزل الأعلى إلى موضع الأدنى دون ضرورة أو مسوّغ ..وهكذا تقوم الساعة .

ومن معطيات القصة إرساء منهج إسلامى تربوى معرفى سبق النظريات المعاصرة التى تكثر من الرطانة حول ما يسمى حق السؤال أو المساءلة .. ففى القصة سؤال يؤدى إلى جواب .

السؤال فى الإسلام حق وواجب ووسيلة معرفية تربوية ، والإجابة فريضة على كل من يعرف و يقدر على تقديمها ، وقد وضعها الإسلام فى إطار محترم وراق ، و نعى على من يخالفها ، لأنه يخالف المنطق و الأصول المعرفية .

"وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ "(الحج :٨)

و قال تعالى : "وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ...."(العنكبوت :٤٦)

و قال تعالى : "وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...."(النحل :١٢٥)

ولا ريب أن منهج المعرفة فى الإسلام له أبعاد كثيرة يصعب الحديث عنها فى هذا الحيز الضيق ، و لكنه فى النهاية ، يجعل المسلم يعيش عمره كله طالباً للعلم، محبّاً للمعرفة باحثاً عنها فى كل المكان.

وفى القصـــة صورة مضيئة للعلاقة بين المعلم والمتعلم ، هى علاقة الإخلاص والبذل والعطاء من جانب الأول . والتواضع والجدية والاحترام من جانب الآخر.

إن جبريل عليه السلام يقترب من النبى ، صلى الله عليه وسلم – لا يبخل بإجابة ولكنه يجيب ويوضح ويشرح ، لأن هذه مهمته بوصفه الداعية الأول الذى يقدم القدوة والنموذج للأجيال التالية من الدعاة والمعلمين إلى يوم الدين ...ثم انظر إلى تواضع المصطفى صلى الله عليه وسلم حين يخاطب عمر – رضى الله عنه – وهو يُعلِمه بشخصية الرجل الذى جاء يسأل :

" فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم "..لم يقل أنا الذى يعلمكم ، ولكنه نسب العلم إلى جبريل الذى قام بدور السائل ، ومع ذلك فهو " المعلم " الذى يقدم نموذجاً هادئاً وبسيطاً ومثمراً لكيفية التعلم بعيداً عن الأمر والنهى المصحوبين بالزعيق والصياح والصراخ .. إنها مدرسة النبوة فى تألقها الساطع الوديع الذى يجمع القلوب ويؤلف الأفئدة ويشرح الصدور ويحيى النفوس ...

**** ****

القرد و الخمر

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن رجلاً حمل معه خمراً فى سفينة يبيعُهُ ، و معه قرد – قال :

فكان الرجل إذا باع الخمر شابه بالماء ، ثم باعه – قال :

فأخذ القرد الكيس ، فصعد به فوق الدقل . قال :

فجعل يطرح ديناراً فى البحر ، و ديناراً فى السفينة حتى قسمه .

وفى رواية أخرى :إن رجلاً كان يبيع الخمر فى سفينة ، و معه فى السفينة قرد – فكان يشوب الخمر بالماء . قال :فأخذ القرد الكيس ، ثم صعد به فوق الدور ، وفتح الكيس ، فجعل يأخذُ ديناراً فيلقيه فى السفينة ، و ديناراً فى البحر حتى جعله نصفين "

(أخرجه أحمد والبيهقي)

....

تجتمع فى قصة هذا الحديث عناصر القصة المعروفة . فالحدث هنا هو بيع الخمر المغشوش مخالفة لما استقر عليه المجتمع من الأمانة فى البيع و الشراء ، و ثقة المشترى فى البائع الذى يفترض أن يكون أميناً .

و المكان هنا هو السفينة و البحر . و السفينة تمثل المجتمع بحكم ما تضمه من مسافرين و بحارة على ظهرها يشيرون إلى أفراد المجتمع الذين تتفاوت وظائفهم و مهنهم و أعمالهم ، واحتياج بعضهم إلى بعض ، و بخاصة فى البيع و الشراء ، ومنهم بائع الخمر الذى يسعى إلى الكسب ولو كان بالغش أو الخروج على قواعد المجتمع .

و سوف نلاحظ أن الزمان جاء مجهولاً فى القصة على العكس من المكان ولعله يشير هنا إلى فترة لم تكن فيها الخمر محرّمة ، و كان الناس يتداولونها مثل

بقية السلع وهو ما يشير من ناحية أخرى إلى تحريم الغش فى الأزمنة كافة ، والسلع كافة .

أما عنصر الشخصية فى القصة فيضم شخصية البائع الغشاش والقرد المرافق له وكلاهما يكمل الآخر من حيث إن البائع يخرج على سياق المواضعات الاجتماعية فى البيع والشراء بغش بضاعته ، والقرد يستنكر هذا الخروج و يرفضه .

ثم لنا أن نتأمل موقف القرد الذى يمثل الطبيعة الحيوانية و الفطرة التلقائية فى التصدى لخروج الإنسان عن المواضعات الاجتماعية أو ما يمكن تسميته بالفطرة الإنسانية و هذا التصدى هو ما يفسّر بذروة العقدة القصصية فى الحديث ، حيث تنحل بعدئذ بقيام القرد بالصعود **إلى الدقل** : وهو الصارى الذى يرفع فوقه شراع السفينة ، وهو أعلى جزء فيها حتى لا يتمكن منه صاحب الخمر ، و يأخذ فى تقسيم ما فى كيسه من مال ، **فيطرح** : أي يرمى مافي الكيس ، أى إن القرد أخذ يرمى ديناراً من ثمن الخمر فى الماء ، و يرمى آخر فى السفينة حتى صار المال قسمين أو نصفين ، إشارة إلى أن النصف الذى ألقاه فى الماء يعادل الجزء المغشوش من الخمر .لأن الرجل كان يشوب الخمر بالماء ، **وشاب يشوب** : أي خلط يخلط ، أى خلط الرجل الخمر بالماء فلم تعد صافية و صارت مغشوشة .. الماء طبيعي و الخمر مغشوشة ، وفى الحالين نشهد المفارقة بين موقف الإنسان الذى ينحرف بطبيعته والحيوان الذى يصحح له هذا الانحراف ، فى بيع الخمر أو شربها على السواء .

لا ريب أن الخمر أم الخبائث ، وهى من الموبقات المهلكات على المستويين الفردى والإجتماعى و قد تدرج القرآن الكريم فى تحريمها . فقد كانت شائعة فى الجاهلية ، وكان ينتج عن تعاطيها شرّ كثير ، قال تعالى :

"يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ...."(البقرة :٢١٩)

و قال تعالى : "إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ "(المائدة-٩١)

و قد تمنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه – أن يتم تحريم الخمر تماماً لما تسببه من شرّ و أذى و متاعب و خسائر للأفراد والناس جميعاً ، فنزل قوله تعالى: "...إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (المائدة :٩٠)

و نلاحظ ارتباط الخمر بالميسر أو ما يعرف بالقمار ، و عبر عنها القرآن الكريم بالرجس ، وكان التحريم بالاجتناب ، أى البعد تماماً ، و لذا كان الحديث الشريف منبها إلى لعن الخمر وشاربها و بائعها و شاريها وكل من يشارك فى تقديمها أو صنعها أو تسهيل أمرها .

و فى سياق القصة نجد إشارة إلى خلّة مذمومة وهى " الغش " الذى يتحقق غالباً فى البيع و الشراء . فهو صفة ذميمة فى كل الأحوال ، وقد تبرأ الرسول صلى الله عليه وسلم من الغش و الغشاشين ، فقال : " من غش فليس منا " ، وهذه البراءة تشير إلى بشاعة جريمة الغش فى كل الظروف و المناسبات ، و المسلم الحق هو الذى يقول الحق و يقول الصدق و يخشى الله فى السر و العلن .

تقدم لنا القصة موقفاً دالاً من الحيوان الذى هو القرد ، فى رفضه لانحراف الطبيعة البشرية . فالفطرة السوّية فى الإنسان أو الحيوان أو الطير الذى فطرها الله عليها ترفض الانحراف و مخالفة الفطرة . وهو ما رأيناه فى تصرف القرد حين رأى صاحبه ينحرف عن فطرته و يخرج عليها ، فيقوم القرد بتصحيح هذا الانحراف و إعادة صاحبه إلى سواء الصراط .

ومن مجمل القصة يتبين لنا أن التشريع الإلهى فيه خير كثير للعباد والبلاد. فالخمر لا تنتج إلا الشرّ و الأذى ، وعند تناولها يغيب العقل ، و يضيع الرشد، و يضل الإنسان و عندئذ يرتكب من الجرائم و الموبقات ، ما يؤدّى به إلى طريق الظلام و الضياع و الجريمة فيسىء إلى نفسه و إلى مجتمعه .

و تحريم الخمر ليس قيداً على الإنسان أو حرمانا له من متع الحياة ، بقدر ما هو صيانة لنفسه و نفوس المجتمع .. ولسنا الآن فى مجال تعديد صور الخسارة بالنسبة للإنسان فى نفسه و بدنه و صحته و ماله و عرضه و دينه ، و بالنسبة للمجتمع فى أفراده وثرواته و قيمه و أخلاقه وأمنه و حاضره و مستقبله ، ولكننا نشير إلى أن الله - وهو أعلم بمصلحة العباد - وضع لنا تشريعاً متفوّقاً فيه فائدتنا وصلاحنا ، و عزّنا و كرامتنا و خيرنا ومجدنا و دنيا طيبة تمهّد لأخرى طيبة فيها خمر طيبة بل فيها أنهار من الخمر.

"....وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ....."(محمد :١٥)

و هذه الخمر لا تذهب العقل ولا تزرى بصاحبها "لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ "(الصافات :٤٧)

أليس فى تشريعنا الإلهّى خير كثير ؟

**** ****

الصبر على البلاء

عن خباب بن الأرت – رضى الله عنه – قال :

" شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو متوسد برده فى ظل الكعبة فقلنا :- ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال :قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، و يمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه وما يصدّه ذلك عن دينه .

والله ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون "

"أخرجه البخارى ، و أبو داود"

....

يأتى الحدث أو موضوع القصة من خلال إطارين ، قصة كبرى ، وهى شكوى الصحابة مما يعانونه ، و يسألون الرسول – صلى الله عليه وسلم – النصرة والدعاء .

ثم قصة صغرى وهى ما كان يجرى لبعض المؤمنين من تعذيب يصل إلى حدّ النشر بالمنشار والتمشيط بأمشاط الحديد .

القصة الكبرى إطار أكبر لما يعانيه المؤمنون فى كل زمان و مكان من أجل إيمانهم وعقيدتهم وضرورة أن يتحملوا و يصبروا حتى يأتيهم نصر الله و يتم دينه .

و القصة الصغرى نموذج لما كان يحدث قبل الدعوة الإسلامية ، فقد كان المؤمنون يتعرضون لأهوال تذهب بحياتهم بعد تعذيب بشع وحشى ، ولكنهم ظلوا على مبادئهم ومعتقداتهم لا يتغيرون . وهو ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون في صدر الدعوة . لقد ذهبوا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو متوسد برده في الكعبة ، أى جعل البردة تحت رأسه بمنابة وسادة ، و البردة هى الشملة المخططة .

وقيل إنها كساء أسود مربع فيه اصفرار تلبسه الأعراب ، جمعها بُرُد ، وطلبوا منه أن يستنصر لهم أي يطلب النصرة ويدعو لهم الله بالانتصار على من يعذبونهم ويضطهدونهم.. فيذكرهم بالسابقين ممن تحملوا الاضطهاد والعذاب ، وأن ذلك ما كان يصدهم أى ما يمنعهم العذاب بالمنشار و أمشاط الحديد عن دينهم وعقيدتهم .

ثم كانت هنالك بشارة من الرسول – صلى الله عليه وسلم – مصحوبة بالقسم المؤكد عن حتمية انتصار الإسلام وسيادة الأمن فى أرجاء الجزيرة العربية . " والله ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، و الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون "ويقصد بقوله : " هذا الأمر" الإسلام ، أى ليتمّن الله الإسلام .

والشخصية فى القصة شخصية عامة لا نلمح إلا جانباً من ملامحها على أساس أن الشخصية معروفة سلفاً ، فهناك شخصية الصحابى الجليل " **خباب بن الأرت** " رضى الله عنه – وهو واحد من الصحابة الذين سألوا الرسول – صلى الله عليه وسلم النصرة و الدعاء .. ثم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم – نفسه الذى يتوجه إليه الصحابة بالطلب أو الرجاء ، و نراه فى تواضعه وهو يتوسد بردته ويضعها تحت رأسه بوصفها وسادة ، وهو يجيب على أصحابه داعيا إياهم إلى الصبر على البلاء .. وهناك شخصيات مبهمة لرجال ينشرون بالمناشير و يمشطون بأمشاط الحديد التى تفصل اللحم عن العظم ، ومع ذلك يصبرون على البلاء ولا تتزعزع ثقتهم فى الله .. ولا إيمانهم به .

إن هذه الشخصيات المبهمة لأولئك الرجال . هى شخصيات المعذبين فى العصور كافة والأماكن المختلفة .

و **يظهر عنصر المكان** هنا مشيراً إلى أهميته و قدسيته أو إلى اتساعه و امتداده ، فالكعبة التى ينام الرسول – صلى الله عليه وسلم – بجوارها تمثل رمزا

وبيتاً ولها قيمتها و مكانتها فى الإسلام منذ بناها إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام حتى عصر البعثة المحمدية الخاتمة .

كما أنها تشير إلى ارتباط الحدث القصصى وهو المعاناة فى سبيل العقيدة برمز العقيدة وهو الكعبة . وفى ذكر المسافة بين صنعاء و حضرموت إشارة أخرى إلى اتساع المكان و امتداده . فانتصار الإسلام ينشر الأمن فى كل الأرجاء ، وإذا عرفنا أن صنعاء و حضرموت من أبعد الأماكن فى ذلك الوقت عن مركز الدعوة وهو الكعبة أو مكة المكرمة ؛ فإن بشارة الرسول - صلى الله عليه وسلم - صدقت ، ووصل الإسلام إلى أبعد الأماكن بما فيها صنعاء و حضرموت ، ولكل منهما حضوره التاريخى و الحضارى فصنعاء رمز الحكمة اليمانية ، وحضرموت هى منبع الدعاة الذين نقلوا الإسلام إلى أبعد مكان على ظهر الأرض كما نرى فى نشرهم له بإندونيسيا وما حولها من الجزر و الأماكن .

أما ختام القصة ، فهو البشارة النبوية بانتصار الإسلام ، وقد جاءت مؤكدة بالقسم واللام ونون التوكيد الثقيلة ، وقد تحققت بفضل الله وانتصر الإسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

تكشف القصة فى أول معطياتها عن جانب الضعف الإنسانى أو البشرى فى مقاومته للشرّ . وتعرّض الإنسان لهزات نفسية عاتية حين تكون قوة أعداء الدين أكبر من قدرته على التحمّل و المقاومة ، وحينئذ يأتى المثال على الصمود والصبر من خلال ما تعرّض له السابقون من المؤمنين فى الأمم الأخرى .. حيث كان الواحد منهم يوضع فى حفرة تستوعب معظم جسده ثم يؤتى بمنشار فينشر من رأسه فيكون نصفين ، ثم يمشط بأمشاط الحديد لتفصل لحمه عن عظمه ، ولكن ذلك كله لا يزحزحه قيد أنمله عن إيمانه و عقيدته .

وقد وردت قصة أصحاب الأخدود فى سورة البروج لتقدم نموذجاً حيّاً للصبر على البلاء ".

"قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ " (البروج ٤-٨)

كما وردت آيات كثيرة تحث على الصبر و توضح طبيعته و كيفيته و ثوابه ، منها قوله تعالى :"فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ...."(الأحقاف ٣٥)

و قوله تعالى :"...وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ "(النحل :٩٦)

و قوله تعالى :"فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا "(المعارج :٥-٧)

و قوله تعالى :

"يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ ....."(ال عمران : ٢٠٠)

و قوله تعالى :"....قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ "(البقرة :٢٥٠)

و تعطينا القصة نموذجاً للتواضع الإنسانى فى أنضج صوره ، وهو تواضع الرسول – صلى الله عليه وسلم – فمع أنه رسول مصطفى من عند الله ، يخصه بالوحى والإلهام وهو خاتم الرسل و الأنبياء ، فإنه لا يجد غضاضة أن يصنع من برده وساداً أو وسادة يضعها تحت رأسه وهو ينام بجوار الكعبة فى بساطة متناهية ، وهو الذى علمنا أن " من تواضع لله رفعه " ، فأين هذا من استعلاء بعض الناس فى زمننا استعلاء مرذولاً ، و تكبرّهم بغير حق ، و خيلائهم التى يتصورون أنها تجعلهم من طينة أخرى غير طينة البشر ، ونسوا أو تناسوا أن لقمان عليه السلام يوصى ابنه بالتواضع و عدم التكبّر.

"وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ "(لقمان :١٨)

و هذا إدراك من لقمان عليه السلام لقيمة التواضع و البساطة فى حياة الناس .

إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقدم لنا القدوة الحسنة فى مجال التواضع والبساطة و الاقتراب من الناس ، و الصبر على البلاء ،وهو الذى يستعين بالتاريخ أو المثال التاريخى ليقنع أصحابه بضرورة الصبر ، وعدم استعجال النتائج، لأن الاستعجال يفسد المقدمات و يؤدى إلى نتائج غير طيبة ، فالصبر الجميل هو الطريق الحقيقى للحصاد المثمر و النتائج الباهرة .

و عملاً بإشاعة الأمل و البشارة فى النفوس ، فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم وقد بعثهُ الله مبشراً و نذيراً ، يبشر قومه الذين يصبرون على البلاء ولا يستعجلون النتائج قبل موعدها ، بانتصار الإسلام والتمكين له فى الأرض ، وتجاوز كيد الأعداء و تخطيط المتربّصين " و الله ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه .." .

وقد تحققت البشارة و صار الأمل حقيقة ، و أتم الله نوره ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، و نزل قوله تعالى :

"....الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...."(المائدة :٣)

و هكذا فإن المؤمن صاحب العقيدة لابد أن يتحّمل فى سبيل عقيدته وإيمانه ويصبر على البلاء صبراً جميلاً ، وليكن له فى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قدوة حسنة ، وفى السابقين من أهل العقائد الذين امتحنوا في إيمانهم نماذج للصبر على البلاء وعدم الاستعجال فى قطف الثمار.. وليكن أملهم فى الله كبيراً ، فهو القادر على تحقيق غاياتهم ، و نصرهم على أعدائهم .

الابتلاء و الرحمة

عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت لرسول الله – صلى الله عليه وسلم :

- يارسول الله ، ما أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من يوم أحد ؟

- قال :

- لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذْ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل فلم يُجبنى ، فانطلقت و أنا مهموم على وجهى، فلما كنت بموضع كذا رفعت رأسى فإذا أنا قد أظلتنى سحابة ، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى ، فقال :

- إن الله عزوّجل قد سمع قول قومك ، وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

- فنادانى ملك الجبال فسلّم علىّ ، ثم قال :

- يا محمد ، إن الله عزوّجل قد سمع قول قومك ، و أنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك بأمرك فيماشئت ، إن شئت أُطبق عليهم الأخشبين .

- فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :-

- أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا شريك له "

" أخرجه البخارى و مسلم و ابن حبان و ابن أبى الدنيا "

يقوم الحدث فى القصة على المفاضلة بين يوم أحد الذى كان شديداً أو أشد الأيام فى حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – و بين يوم آخر ذكره لعائشة و كان أشدّ من يوم أحد ، وهو دعوته ابن عبد ياليل الذين رفضوا الاستجابة ..

اليوم الأول وهو يوم أحد انهزم فيه المسلمون أمام قريش بعد أن أوشكوا على قطف ثمار نصر كاسح ، ولكن مخالفة المقاتلين للأوامر شجعت المشركين على الكرّ على المسلمين و إعمال السيف فيهم وهم مشغولون بجمع الغنائم ، لولا صمود الرسول - صلى الله عليه وسلم - و مجموعة من الصحابة ، و ثباتهم فى وجه الهجوم الذى أوقع بالمسلمين خسائر كبيرة و حوّل انتصارهم إلى هزيمة .

أما اليوم الآخر فهو اليوم الذى دعا فيه النبى ابن عبد ياليل إلى الدخول فى الإسلام ، ولكنهم لم يستجيبوا وكان يأمل فيهم كثيراً ، ولكنه عاد كاسفاً حزيناً يحمل من الهموم ما جعله يمضى على وجهه فى الطريق على هيئته هذه . وهو **معنى قوله** : " عرضت نفسى على ابن عبديا ليل فلم يجبنى " ، أى عرضت الإسلام على قوم عبد ياليل ، فلم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لى . ويفسر نتيجة ذلك بقوله "فانطلقت على وجهى " ، أى سرت فى الطريق و أنا ملىء بالهموم و الأحزان بسبب عدم إسلامهم .

و **شخصيات القصة** معروفة لقارىء الحديث أو سامعه ، فها هى عائشة زوج الرسول - صلى الله عليه وسلم ، و ابنة صديقه الأول أبى بكر - رضى الله عنه - ثم نرى شخصية النبى - صلى الله عليه وسلم - يرد على كلامها و يصف حالته و ابن عبد ياليل لم يستجيبوا له ، وشخصية جبريل عليه السلام التى ظهرت فى السحابة لتشدّ من أزره وتبلغه بحفظ الله له ورعايته الدائمة ، ثم شخصية ملك الجبال ، الذى ينفذ أوامر ربه كى ينفذ انتقامه من المشركين لو أرادا النبى - صلى الله عليه وسلم .

و **نلاحظ أن** الحوار عنصر مهم من عناصر القصة ، لأنه يكشف عما يشغل الشخصية القصصية أو يبين وظيفتها ، فهو يكشف عما تراه عائشة رضى الله عنها من أن يوم أحد أشد الأيام على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه يجيبها أن

يوماً آخر كان أشد من يوم أحد حيث كان يودّ أن يسلم ابن عبد ياليل ولكنهم حدلوه ورفضوا الاستجابة له ثم نجد جبريل عليه السلام و ملك الجبال يمتثلان للمهمة المكلّف بها كل منهما ويبلغان الرسول – صلى الله عليه وسلم بما كلفّا به وهو الانتقام لو أراد .

و بناء القصة يقوم على الكشف عن شدّة وقع يوم صعب على النبى الكريم .

و كانت عائشة تظن أنه يوم أحد الذى انهزم فيه المسلمون ، و تحمّل النبى مع الصحابة شدّته و تأثيره ، ولكننا نجد أن يوم ابن عبد ياليل كان أشدّ ، فقد كانت قسوته على النبى صلى الله عليه وسلم محرّكاً لجبريل و ملك الجبال ليقتصاً من هؤلاء القوم " **إن شئت أطبق عليهم الأخشبين** " **والأخشبان** : جبلان فى مكة أولهما أبو قبيس ، والآخر ما يقابله .

والمعنى إن أردت الانتقام فإنه يمكن إهلاكهم و إفنائهم تحت الجبلين العظيمين اللذين إذا اجتمعا سحقا من تحتهما ، و **أطبقتهما** : جمعتهما فلا ينجو منهم أحد .

وكأن قارىء الحديث أو المستمع إليه يتصّور أن تكون هذه هى النتيجة الطبيعية لقوم عبدياليل ، ولكن ختام القصة يأتى مخالفا لذلك ، كاشفاً عن خُلق كريم للرسول صلى الله عليه وسلم – يختص به وحده و يتميز ، وهو يتمثل فى عدم رغبته فى الانتقام من القوم الذى خذلوه وردّوه خائباً ، ولكنه يتمنى أن يخرج الله من بين ظهرانيهم من يعبد الله لا شريك له .. وهو ما قصده **بالإشارة إلى الأصلاب** : جمع صُلب ، وهو الظهر .

ولا ريب أن هذه الخاتمة تتسق مع منهج الإسلام فى الدعوة والأمل ، فمهما لقى الدعاة من المتاعب و الصدود ينبغى عليهم أن يكونوا أكثر تسامحا ومودّة و إيماناً بالمستقبل الذى يفتح الله فيه أبواب الأمل و الرحمة أمام الآخرين .

تعطينا القصة النبوية صورة لما يعانيه الأنبياء و الرسل فى صراعهم مع الدنيويين الذين يبتعدون عن الإيمان و التوحيد . فقد كان يوم أحد شديد الوقع والقسوة على المسلمين و قائدهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأنهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من النصر الكاسح على المشركين ، ولكنهم خالفوا أوامر قائدهم وانشغلوا بجمع الغنائم فكرّ عليهم المشركون و هزموهم و أنزلوا بهم خسائر فادحة ، ولكن رحمة الله سبحانه تجلّت فى تثبيت النبى – صلى الله عليه وسلم – ومجموعة من الصحابة معه ، مما شجع المسلمين الذين انفرط عقدهم على التجمع حولهم ، والصمود فى وجه المشركين ، و حفظ بيضة الإسلام التى كادت تنسحق تماماً وينتهى ذكرها .

إن ابتلاء الأنبياء مسألة أساسية ، و ابتلاء المؤمنين أيضاً ، لأنه للتمحيص و الاختبار و معرفة الإيمان الصادق من غيره .

قال تعالى : "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ "(محمد ٣١)

و قال تعالى : "لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ "(آل عمران :١٨٦)

و يشير الحديث إلى أن ابتلاء الأنبياء و الرسل ، و المؤمنين أيضاً ، تصحبه رحمة الله سبحانه ، و دعمه الإلهى حين تشتد المحن و تصل إلى حد الذروة ، فقد رأينا جبريل وملك الجبال يقدمان دعمهما للنبى – صلى الله عليه وسلم – و يثبتان قلبه تعويضاً عما لحق به من حزن و انكسار لدى قوم عبد ياليل .

ولا ريب أن القصة النبوية تكشف لنا عن منهج مهم لدى الأنبياء و الرسل والدعاة وهو ضرورة الصبر أمام الشدائد و المحن ، فلولا صبر النبى صلى الله عليه

وسلم – يوم أحد مع بعض أصحابه لا نسحق المسلمون ولما تدمت لهم قائمة . ولولا صبره – صلى الله عليه وسلم – يوم عبدياليل ما وجد هذا الدعم الإلهى غير المحدود .

بالطبع فإن البشر يحزنون و يتأثرون نتيجة للإخفاقات أو عدم تحقيق الآمال ولكن الإيمان بالله ووصل حبله دائما . يجنب الدعاة و غيرهم مزالق اليأس والإحباط .

"....إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ "(يوسف :٨٧)

و نرى فى هذا الحديث الشريف صورة لما ينبغى أن يكون عليه الداعية المسلم اقتداء بمنهج الرسول – صلى الله عليه وسلم – فهو الرءوف الرحيم كما وصفه ربه جل و علا "....بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ "(التوبة : ١٢٨)

وهو ليّن الجانب الودود "فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ...."(آل عمران:١٥٩)

وهو القائل : " أنا رحمة مهداة " ؛ وهو الذى كان يردّد :

" اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ".

وكان موقفه من أهله الذين آذوه و أخرجوه من مكة و حاربوه فى مهجره ، حين انتصر عليهم و أصبحت رقابهم فى قبضته :

" ما تظنون أنى فاعل بكم . قالو خيراً . أخ كريم و ابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء ".

هذا المنهج هو الذى أشارت إليه القصة التى بين أيدينا . فقد كان الهلاك قريباً منهم بإطباق الأخشبين عليهم ، ولكن الرءوف الرحيم – صلى الله عليه وسلم – يقول :" أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا شريك له "حقا ، إن الغاية الكبرى للإسلام هى الإيمان بالله الواحد الأحد الذى لا شريك له ..وليست الانتقام أو العقاب . فقد أرسل الله رسوله رحمة للعالمين .

سبق عكاشة

عن ابن عباس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" عُرضت علّى الأمم ، فرأيتُ النبّى و معه الرهيط ، والنبى و معه الرَّجلُ والرجلان والنبى ليس معه أحد ، إذ رفع لى سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتى ، فقيل لى :

- هذا موسى و قومه ، و لكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لى :
- هذه أمتك و معهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب "
- ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب .
- قال بعضهم : الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- قال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام فلم يشركوا بالله .
- فخرج عليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال :
- ما الذى تخوضون فيه ؟
- فأخبروه ، فقال :
- هم الذين لا يَرْقُون ، ولا يسترقُون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون .
- فقام عكاشة بن محصن ، فقال :
- ادع الله أن يجعلنى منهم .
- فقال :أنت منهم .
- ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم .

- فقال : سبقك بها عكاشة "

"أخرجه البخارى و مسلم و أحمد و الترمذى و الدارمى و ابن حبان و البغوى"

....

أول هـذه العناصـر يتبدّى فى السرد أو الحكى أو الحدث الذى يرويه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من خلال الرؤيا ، ورؤيا الأنبياء حق ، أو من خلال رحلة الإسراء والمعراج وهو استعراض أمم السابقين مع الأنبياء ، كل نبى مع أمته ، فهناك أمة صغيرة أقل من عشرة أفراد مع نبيها ، و هناك رجل أو رجلان مع نبّى ،وهو ما عبر عنه النبي - صلّى الله عليه وسلم - بالرهيط ،والـرُّهَيْط : تصغير رَهْط ، وهم الجماعة أقل من العشرة .

وهناك نبّى ليس معه أحد . وهناك سواد عظيم أى جمع عظيم من عامة النـاس مـع نبّى الله موسى عليه السلام ، وقد ظنهم الرسول صلى الله عليه وسلم أمته ، فإذا به يرى جمعا عظيما فى الأفق ، ويقال له : إن سبعين ألفاً من أمته سيدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .

و حين يستمع الناس إلى ما قالـه الرسـول - صلى الله عليه وسلم ، فإنهم يحاولون تفسيره بعد أن نهض و دخل منزله ، وهو معنى قولـه : " خـاض النـاس " : ؛ أى تكلّم النـاس فيمـا قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحدثوا عنهم ، و علقوا عليه .

فمنهم من يرى أن السبعين ألفاً من الصحابة ومنهم من يرى أنهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشركوا بـالله شيئاً ، ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يخرج عليهم ، و يعلم بما دار بينهم ، و يخبرهم أن الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب هم الذين لا يدعون بدعاء الوثنية ، وهو معنى قوله : " لا يرقون " ، أى

لا يدعون دعاءً وثنياً للتعوذ من الشرّ. ولا يطلبون دفع الشرّ بمثل هذا الدعاء ، كما ورد في قوله : " لا يسترقون " ؛ أى لا يطلبون الرقية بمعناها الوثنى المخالف للإسلام. وفي قوله : " لا يتطيّرون " ؛ أى لا يتشاءمون . ولكنهم الذين يتوكلون على الله مع الأخذ بالأسباب الممكنة .

و هنا يطلب رجل أن يدعو له الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيعتذر بلطف ورقة قائلاً : سبقك بها عكاشة ، أى إن عكاشة بن محصن قد سبقه فى طلب الدعوة فاستجيب له .

و تعتمد القصة على عنصر الحوار القائم على السؤال و إجابته ، أو الحوار المترادف تفسيراً لأمر غير واضح ، أو الحوار الذى يجرى طلباً لمعروف أو تحقيقاً لرغبة وقد رأينا الرسول – صلى الله عليه وسلم يسأل الملائكة حول أسماء بعض الأمم العظيمة العدد حين ظن أنها أمته فأخبر أنها أمة موسى عليه السلام ، أما أمته فقد طلب منه النظر إلى الأفق ليراها جمعا كبيراً ، يثاب منه سبعون ألفا بدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب .

و حين يخرج إليهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – يتحول الحوار إلى توضيح و بيان لهؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فهم المتوكلون على الله بعد الأخذ بالأسباب الممكنة ، دون أن يدعوا دعاء الجاهلية أو يطلبوا هذا الدعاء الوثنى .

ثم يتطور الحوار لتحقيق الرغبة بدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب من بعض الصحابة حيث يسبق عكاشة بن محصن بطلب الدعاء لتتحقق له هذه الرغبة .

و بناء القصة يعتمد على التدرّج منذ عرض الأمم على الرسول – صلى الله عليه وسلم – مروراً بحديث الصحابة حول طبيعة الداخلين الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم يأتى التمهيد لنهاية القصة ببيان طبيعة هؤلاء بأنّهم الذين لا يطلبون الرقية المنهى عنها ولا يتشاءمون ، ولكنهم يتوكلون على ربهم حق التوكل ، ثم نصل إلى ختام القصة ببيان سبْق عكاشة فى الفوز بالدعوة النبوية لدخول الجنة بغير حساب .

أول ما تعلمنا القصة من معلمات ؛الإشارة الواضحة إلى مكانة الرسول – صلى الله عليه وسلم – المتميّزة بين الرسل و الأنبياء ، و مكانة الأمة الإسلامية بين أمم الأرض . فالرسول – صلى الله عليه وسلم – هو آخر الرسل و خاتم الأنبياء وصاحب الرسالة الشاملة الكاملة ، و أمة الإسلام هى الأمة التى يدخل الجنة منها – وهى الجمع العظيم . سبعون ألفا بغير حساب ولا عذاب لأنهم لا يطلبون الرقية المنهى عنها ، ولا يتشاءمون بل يتوكلون على الله حق التوكل بالأخذ بالأسباب .

وقد وُعد المسلمون المتقون هؤلاء بالجنة فى كثير من الآيات الكريمة التى وردت بالقرآن الكريم .

قال تعالى : "وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ...."(ق ٣١)

و قال تعالى : "وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ "(محمد : ٦)

و قال تعالى : "أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا "(الفرقان :٢٤)

ولا ريب أن التوكل على الله ، يعنى التسليم إليه فى كل حال ، مع الأخذ بالأسباب الممكنة ، لأن عدم الأخذ بها يعنى التواكل ، وقد قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – لمن ضيع ناقته بعد أن دخل إلى الصلاة بحجة التوكل على الله :

" اعقلها و توكل "

فعَقْل الناقة أى ربطها أو تقييدها حتى لا تضل هو الأخذ بالأسباب المكنة ثم التوكّل على الله الذى يتكفل بحفظ الناقة ..

وقد وردت الآيات الكريمة فى القرآن الكريم بهذا المعنى الذى يجعل المسلم يتوكل على ربّه فى كل الأحوال :

"إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ...."(هود ٥٦)

"...وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ..."(الطلاق :٣)

"....إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ "(يوسف ٦٧)

"وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ....."(إبراهيم : ١٢)

ومن هذا نفهم أن التوكل على الله هو أساس الحياة فى المجتمع الإسلامى ؛ أما التواكل فهو القعود عن العمل ، وعدم الأخذ بالأسباب ، والسلبية المرضية التى تكتفى بالكلام دون الفعل ، والقرآن الكريم يأمر العمل "وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ...."(التوبة : ١٠٥)

ومن معطيات القصة التنبيه إلى خطورة الدعاء بمنطق الوثنية ، ومثله التشاؤم فغير الله لا يملك للإنسان ضرّاً ولا نفعا ، وهو شرك و عودة إلى الجاهلية الأولى .

أما التشاؤم فهو محرّم على المسلمين ، لأن المصائر و الأعمار و الأعمال مقدورة بقدر الله ، ولا يملك الإنسان أن يغيّر من قدر الله ، وقد نعى الحق سبحانه على الأقوام السابقة تطيّرهم و تشاؤمهم ...

"قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ...."(النمل : ٤٧)

وها هم قوم موسى :

....وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ ..."(الأعراف :١٣١)

وهاهم آخرون :

"قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ"(يس : ١٨)

ومن المعطيات التى تقدمها القصة ضرورة المبادرة إلى الخيرات واكتساب الحسنات ، فعكاشة بن محصن ، حينما رأى مصير الطيبين الذين دخلوا الجنة بلا حساب ولا عذاب لأنهم لم يطلبوا الرقية بمفهوم الجاهلية ولم يعرفوا التشاؤم و التطير ، بل توكلّوا على الله حق التوكل و أخذوا بالأسباب الممكنة ؛ كانت مبادرته و سبقه إلى طلب الدعاء من النبى - صلى الله عليه وسلم ليكون مثل هؤلاء الطيبين .. وعندما أدرك ذلك رجل آخر كان فى صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم - كرر طلب عكاشة ، و لكن الأمر كان قد فاته وصارت مقولة - صلى الله عليه وسلم - مثلاً يضرب فيمن يسبق إلى الخير و يطلبه فيفوز بثوابه .

**** ****

الصدقة فى غير موضعها

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :

" قال رجل لأتصدّقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون :تُصُدِّق الليلة على سارق !

فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدّقنّ بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها فى يدى زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تصُدّق الليلة على زانية !

فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدّقن بصدقة ، فخرج فوضعها فى يد غنىّ ، فأصبحوا يتحدثون : تصُدّق الليلةَ على غنىّ !

فأتى ، فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعفّ عن سرقته و أما الزانية فلعلها تستعّف عن زناها ، و أما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله ".

"أخرجه : البخارى و مسلم و أحمد و النسائى و البيهقى "

....

يحمل الحديث الشريف عناصر القصة الناجحة المؤثرة من فكرة و بناء متسلسل وتشويق وغاية .

فالفكرة تتحدث عن صدقة يعتزم رجل أن يتصدق بها ، ولكنها تذهب إلى من لا يستحقها . و يتحدث الناس بهذا الأمر الغريب ..

و يقوم البناء على تتابع الحدث ، حيث يتصدق الرجل على لصّ فى أول الأمر و عندما يعلم أنه تصدق على غير مستحق يحمد الله ، ثم يكرر التصدق ، فيتصدق على زانية وعندما يعلم أنها وقعت فى يدٍ لا تستحق ، يحمد الله ،

ويتصدق مرة ثالثة ، فتقع فى يد أحد الأغنياء الذين لا يستحقونها . وهو ما نفهمه من قوله : " وضعها فى يد سارق .. زانية .. غنيّ " ، أى سلّم الصدقة إلى لصّ ، وهو لا يستحق الصدقة ، ومثله الزانية والغنى فهم جميعاً لا يستحقون الصدقة .

ويتشوق الناس إلى معرفة خاتمة القصة ، فيعرفونها من خلال الوجه الآخر لتصدق الرجل على من لا يستحق ، ويتمثل هذا الوجه فى أن الصدقة قد تكون وسيلة دافعة للصّ كى يتوب عن السرقة ، والزانية كى تتعفف عن الزنا ، والغنى كى يبذل ماله فى سبيل الله . وهو ما يفهم من قوله : " يستعف " أى يتعفف ويبتعد عن السرقة أو الزنا أو البخل .أو بالنسبة للغني " فلعله أن يعتبر فينفق " يقصد أن يأخذ العبرة ممن وضع فى يده الصدقة ويقتدى به ويقوم مثله بالتصّدق والإنفاق على المحتاجين والمستحقين للصدقات .

- و نجد فى القصة حواراً يدور بين الناس وبين بطل القصة أو شخصيتها الرئيسية وهو الرجل المتصّدق ، حيث يتعجبون عند إخراج الصدقة لمن لا يستحق من وجهة نظرهم ولكنه يردّ عليهم – وكأنه يحدث نفسه – " اللهم لك الحمد لأتصدقن بصدقة " ويتكرر هذا الحوار مع الصدقات الثلاث . ثم يأتى أخيراً ، وكأنه يتساءل عن مصير صدقاته وهل وقعت فى يد من يستحق أم لا ؟ وتكون الإجابة بأنها مقبولة – إن شاء الله – وقد تكون سببا فى توبة العاصى وحافزاً على الخير للغافل .

من خلال القصة نفهم أن الصدقة سلوك إسلامى نبيل له دوره الكبير فى بناء المجتمع الإسلامى ، والحق سبحانه وتعالى يسلك المتصدّقين والمتصدقات فى سلك عباده الأخيار الذين وعدهم بالمغفرة والأجر العظيم :

"إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا "(الأحزاب ٣٥)

و الصدقة مطلوبة علناً (مثل إخراج الزكاة) أو سراً مثل بقية الصدقات .

قال تعالى : "إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ "(البقرة :٢٧١)

و إخراج الصدقة يعلم الإنسان الذوق و مراعاة شعور الآخرين "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ...."(البقرة : ٢٦٤)

و الصدقات المفروضة تصرف فى مصارفها المشروعة فتؤلف بين القلوب ، وتوّطد المودة بين الناس ، و تخدم الدين بالدفاع عنه و بناء المجتمع المسلم .

و تعطينا القصة مفهوماً متقدّماً للصدقة و معناها و دلالتها ، فهى تعنى الخير، وهى وسيلته المتقدمة ، و تحسب لصاحبها وفقا لنيته و سلوكه ، حتى لو وقعت فى يد من لا يستحقها فللمتصدق الأجر و الثواب – إن شاء الله – مادامت نيته هى الخير ، وسلوكه هو التزاحم بين المسلمين ، ورغبته مساعدة من توجه إليه .

و إذا كانت الصدقة توجه أولاً لأهل الصلاح ، فإن هذا لا يمنع أن توجه لمن يرتجى صلاحهم و خيرهم ، فالإنسان دائماً يحمل بين جبينه عنصراً خيراً مهما بدا شريراً وقاسيا فقد يتعفف اللص ، و تتوب الزانية ، و ينفق البخيل ، و يزداد المنفق الغنى إنفاقاً .

**** ****

النعيم و الجحيم

عن أنس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :-

" يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فَيُصْبغُ فى النار صبغة ثم يقال :

- يا ابن آدم ، هل رأيت خيراً قطُّ؟
- هل مرّ بك نعيمُ قطُّ؟
- فيقول :
- لا ، والله ، يارب ؟
- ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة ، فيُصْبغ صبغة فى الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم ، هل رأيت بؤساً قطّ؟
- فيقول :لا ، والله ، ما مرّ بى بؤس قط ، ولا رأيتّ شدة قطّ ".

"أخرجه مسلم"

....

نلاحظ أن السرد أو الحكى فى القصة يأتى بصيغة المبنى للمجهول : " يؤتى بأنعم أهل الدنيا : ويقصد بهم الذين عاشوا فى نعيم الدنيا كما لم يعش غيرهم واستمتعوا بنعيمها كما لم يستمتع غيرهم . " و يؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا ..." أي أشدّهم فقرا ومعاناة . ليقدم لنا الحدث الذى يدور حول أهل الجنة و أهل النار ، فالذى يقوم بالإتيان مجهول ، ولكننا نعرفه من السياق وهو الملائكة الذين يوكّلون بالجنة و النار ، وأنعم أهل الدنيا وأشدّهم بؤسا ، مطلق شخصيات منعّمة أو بائسة ، عاشت فى نعيم الدنيا فلم تشعر

بالبؤس أبداً ؛ أو عاشت في البؤس فلم تذق طعم النعيم قط ، ولكن وضع كل من هؤلاء وأولاء موضع الآخر في الجنة أو النار ، يجعله لا يشعر بما عاشه في الدنيا أبداً . وهو ما يفهم من قوله : " يصبغ في النار " أي يغمس فيها ليذوق العذاب . ومن قوله : " فيُصبغ صبغة في الجنة " أي يوضع في الجنة لبعض الوقت ليذوق حلاوتها و نعيمها .

المنعّم ينسى أنه ذاق النعيم بسبب ما داقه في النار كما نرى في التساؤل : " هل مرّ بك نعيم قطّ " أي هل ذقت نعيماً من قبل . ، و البائس في الدنيا ينسى بؤسه بمجرد أن يذوق طعم الجنة كما يقال له : " هل مرّ بك شدّة قط ؟ " أي هل رأيت شدّة و معاناة و تعباً في الدنيا من قبل ؟ "

.. و هذه القاعدة تحكمها عملية الاتصال بالله و الإخلاص له من عدمه ، فالذي يعيش على صلة بالله و إخلاص له و قيام بحقوقه يدخل الجنة ولو كان بائساً في الدنيا ، فقيراً معدماً ، ومن انقطعت صلته بالله ولم يخلص له دخل النار ولو كان غنيا مرفهّا و منعما .. المعيار الذي نستخلصه من القصة هنا هو الإيمان بالله .. فمن يملك الإيمان محظوظ ، ولو كان فقيراً ، ومن يفقد الإيمان تعيس ولو كان غنيّاً .

إن ختام القصة يتضح في سياق المنعّم و قصة البائس .

الأول يقول : ما مر بي نعيم قط لأنه شهد العذاب

و الآخر يقول : ما مر بي بؤس قط لأنه شهد النعيم .

معطيات القصة :

من يتأمل القصة جيداً يدرك عدالة رب الناس المطلقة ، فهو الذى قال :

"فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ "(الزلزلة :٧-٨)

لا مكان عنده لحالة الإنسان من حيث الغنى أو الفقر ، أو الأصل أو الحسب أو النسب ، أو النعيم أو الفقر..

الأصل فى العدالة الإلهية هو الإيمان الذى يصدّقه العمل ، فمن عمل صالحاً وخيراً و إحساناً له مكانة فى الجنة ولو عاش فى أحط دركات البؤس والشقاء والمعاناة ومن عمل عملاً غير صالح ، ولم يلتزم بالعقيدة و أشاع الشرّ فى المجتمع كان مصيره إلى العذاب الذى ينسيه كل ما استمتع به فى الدنيا من نعيم ورفاهية .

قال تعالى : "بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ "(البقرة :٨١) .

و يتحدث القرآن الكريم عن المشركين و الكفار الذين قطعوا صلتهم بالله :"....وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ "(آل عمران : ١٠)

و يقدم لنا القرآن الكريم مفارقة دالة حين يذكّر أهل الجنة أصحاب النار بما كان بينهما فى الدنيا من موعدة إلهية تحققت و صدقت :

"وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ...."(الأعراف :٤٤)

و يؤكد القرآن الكريم على مصير أهل الخير و الإيمان "إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ...."(البروج :١١)

"إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ "(الطور: ١٧)

"إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ "(القمر ٥٤-٥٥)

و تعطينا القصة دلالة واضحة على أن المرفهين فى الدنيا لا يعنى أنهم مرفهون فى الآخرة ، و أن البائسين فى الدنيا لا يعنى أنهم بائسون فى الآخرة ، فالنعيم فى الآخرة مربوط بعمل صاحبه و مطابقته لإيمانه ..

وهو ما ينفى وهم بعض الناس أن المنعم فى الدنيا هو المنعم فى الآخرة أو أن الشقى فى الدنيا هو الشقى فى الآخرة .. هذا الوهم ينفيه و يدحضه تنعّم البائسين فى الدنيا بنعيم الآخرة ، و شقاء المنعمين فى الدنيا بعذاب الآخرة .. ومناط النعيم والجحيم فى كل الأحوال هو الإيمان والإخلاص ..فمن كان لديه إيمان و إخلاص تنعم فى الآخرة ولو كان شقيا فى الدنيا ، ومن افتقد الإيمان و الإخلاص فى الدنيا تعذب فى الآخرة ولو تنعم فى الدنيا .

**** ****

رحمة اللّه

عن عمر بن الخطاب – رضى اللّه عنه – قال :

" قدم رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – بسبى . فإذا إمرأة من السبى تسعى إذ وجدت صبيّاً فى السبى أخذته فألزقته ببطنها ، فأرضعته ، فقال رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم :-

" **أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟** ".

قلنا : لا ، و اللّه .

فقال : لَلّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها "

" أخرجه البخارى و مسلم و البغوى و الطبرانى .. "

....

تبدأ القصة بامرأة تبحث عن ولدها المفقود ضمن الأسرى : **أي " السبّى "** أي الذين أسرهم المسلمون ، وحين تعثر عليه فإنها تحتضنه وترضعه رحمة به ولهفة عليه .

ومن خلال منظر هذه المرأة المتلهفة على طفلها لإرضاعه و إشباعه بعد أن افتقدته لبعض الوقت ضمن الأسرى ، وهو ما عبر عنه الحديث الشريف بقوله :"**تسعى**" أي تسير مسرعة بحثاً عن وليدها الذى تفتقده ، نرى الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – يحاور أصحابه عن طريق السؤال و الجواب ، فيطرح عليهم سؤالاً إجابته بالنفى يتضمن أمراً مستحيلاً أو شبه مستحيل : هل يمكن لهذه المرأة أن تلقى بولدها فى النار ؟ أوكما ورد في قوله : " **أترون ؟** " " أى أتظنون أنها تطرح ولدها فى النار ؟

والغاية من السؤال كما نرى بيان مدى حب الأم لابنها ولهفتها عليه ورحمتها ..ومن ثم تبدأ المقارنة بين رحمة هذه الأم بابنها ورحمة الله جل وعلا بعباده ، وتكون رحمة الله بعباده فوق رحمة الأم بابنها على أهمية هذه الرحمة وارتباطها بغريزة الأمومة وعاطفتها ..إن رحمة الله بلا حدود .

تعطينا القصة صورة من صور رحمة الأم بابنها ، فالأم في الإنسان والحيوان ترتبط بابنها ارتباطا طبيعياً وفطرياً ، فلا يوجد من الكائنات البشرية والحيوانية من هو أرحم بالابن وأكثر عطفا عليه من الأم ، وهي الوحيدة التي تتحمل متاعب الولادة والرعاية بعد الولادة ..وما أدراك ماهذه الرعاية ؟ إنها عناء بالليل والنهار.. سهر دائم ويقظة مستمرّة للعناية بالوليد الذي لا يملك من أمره شيئاً ولا يستطيع النهوض بنفسه ..

وقد جعل الله سبحانه الرحمة فطرة طبيعية في الأم تجاه ولدها ، ومهما تكاثرت عليها المغريات والمرهبات فلن يمنعها مانع عن الاهتمام بولدها والعناية به والعطف عليه وتقديمه على نفسها .. وهذه الرحمة الفطرية المغروسة في وجدان الأم المختلطة بكراتها الدموية وغريزتها الطبيعية لا توجد عند أحد آخر على ظهر الأرض إلا في أم الإنسان و أم الحيوان ..

هذه الرحمة في سخائها وكرمها وإغداقها توجد عند رب الناس رحمة أكثر سخاء منها وكرماً وإغداقاً ، إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يخبرنا أن الله أرحم من الأم بأكثر مما يتخيل الناس ، وهو أرحم بعباده فوق ما يتصوّرون .. يكفي أن الأسماء الحسنى لله جل وعلا تضم الرحمن والرحيم .. وقد جاء كل منهما على صيغة المبالغة التي تعني أن الرحمن والرحيم كثير الرحمة أو عظيم الرحمة أو لا يوجد من هو أرحم منه في العالم ..

و لأمر ما جاءت سور القرآن الكريم كلها مبدوءة باسم الله الرحمن الرحيم عدا سورة واحدة هى سورة " التوبة " التى نزلت على الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى أثناء القتال ومع ذلك ورد فيها وصف الحق سبحانه و تعالى بالرحيم فى ثمانى مواضع ، ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم فى موضع واحد بالرحيم.

كما ورد لفظ الرحمة و مشتقاتها فى القرآن الكريم فيما يقرب من أربعمائة موضع ، مما يدل على رحمة الله الواسعة التى لا حدود لها.

قال تعالى : "مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ...."(فاطر:٢)

و قال تعالى : "...وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ "(الزخرف : ٣٢)

و قال تعالى : "هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ "(الجاثية : ٢٠)

هذه الآيات وغيرها تشير إلى رحمة الله المنظورة فى الدنيا و المتوقعة فى الآخرة .. إنها رحمة ممتدة فى عطائه و هديه و نعمه و آلائه ، وهى بالتأكيد تفوق رحمة الأم بولدها.

ومن معطيات القصة أن رحمة الله تفتح باب التوبة أمام الإنسان فلا يستسلم لليأس ، ولا يغرق فى الخطأ ، ولا ينغمس فى الإثم.

قال تعالى :

"قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ "(الزمر : ٥٣)

و قال تعالى :

"...رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ "(غافر:٧)

و قال تعالى :

"....فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ "(البقرة ٦٤)

ولا شــك أن رحمة الله بعباده و الإلحاح عليها فى شتى المناسبات من خلال القرآن الكريم ؛ تعلمنا نحن المسلمين أن نكون رحماء في تعاملنا وعلاقاتنا ، ومع بعضنا وأهلنا وذوينا وزملائنا ومواطنينا .. إن الرحمة حين تشيع بين الناس تشفى كثيراً من الأمراض الاجتماعية المزمنة ، و تساعد على حل كثير من المعضلات الصعبة ، و توّطد أواصر العلاقات الإنسانية بين الأفراد و تشدّها بروابط من المحبة والإخاء ..

وقد كتب الأديب الراحل " مصـطفى لطفـى المنفلـوطى " فصلاً رائعاً عن الرحمة بدأه بقوله : " لو تراحم الناس ما كان بينهم مغبون ولا عار ولا جائع ، و لأقفرت الجفون من المدامع .." و هذا الكلام صحيح مائة بالمائة لأنه ينبثق من الإيمان برحمة الله لعباده التى يجب أن تشيع بينهم فى كل مكان وزمان .

**** ****

الحب فى الله

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – صلى الله عليه وسلم قال :" إن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى . فأرْصَدَ الله تعالى على مَدْرَجَتِهِ مَلَكاً ، فلما أتى عليه قال :

- أين تريد ؟
- قال : أريد أخاً لى فى هذه القرية .
- قال : هل لك من نعمة تربُّها عليه ؟
- قال : لا .. غير أنى أحببته فى الله تعالى .
- قال : فإنى رسول الله إليك ، بأن الله قد أحبَّك كما أحْبَبْتَهُ فيه "

" أخرجه : مسلم و أحمد "

....

تعتمد هذه القصة على السرد أو الحكى بالإضافة إلى الحوار و الشخصية .

ونلاحظ أن السرد هنا يعتمد فى مجمله على الفعل الماضى : زار – أرصد – أتى – أحبّ ، و ذلك لتوكيد الغاية من القصة على أساس حدوث الموضوع القصصى ، وهو ذهاب رجل إلى رجل آخر يحبّه فى الله تعالى .

و الرجل هنا بلا ملامح خارجية أو داخلية اللهم إلا رغبته الخالصة و الصادقة فى الذهاب إلى صاحبه من أجل الثواب الإلّهى . و بالطبع ، فإن هذا الرجل نموذج شائع فى المجتمع الإسلامى ، حيث يحب الرجل أخاه فى الله دون غرض أو هوى ، وهو ما عبر عنه الحديث الشريف بقوله: " أخاً له " يقصد الأخوة فى الدين وليس الأخوة فى النسب .

وهو ما تكون نتيجته التى نراها فى ختام القصة على لسان الملك الذى أرصده الله تعالى فى طريقه ؛ أى جعل له مَلكاً على مدرجته ، و المدرَجة هى الطريق و سميت

كذلك لأن الناس يدرجون عليها و يمشون : بأن الله يحب من يحب فيه ، أو بلفظه " بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه " ..

وهذا ثواب يطمح إليه كل مسلم صادق الإيمان .

كما نلاحظ أن الحوار فى هذه القصة يخدم تسلسل الموضوع ، و يكشف عن طبيعة الشخصية الرئيسية فيه ، " فلّما أتى عليه " أى وصل إليه .راح الملك يسأل الرجل عن وجهته ، و عندما يجيب الرجل بأنه يريد أخاه المسلم فى هذه القرية يسأله : هل لك من نعمة تقوم بها وتسعى فى صلاحها .. وعبر عن النعمة بقوله: " ترّبها " أى تقوم بها وتسعى فى صلاحها .

أى إن الملك يسأله عن الغاية من رحلته ، و يفترض مسبقاً أنها من أجل مصلحة أو أجل منفعة ، كما يفعل أغلب الناس فى كل زمان و مكان ، ولكن الرجل المسلم الذى يفهم العلاقة بين المسلم و أخيه على وجها الصحيح يخبر الملك أنه لا يبغى مصلحة أو منفعة من أخيه المسلم الذى يزمع زيارته .. ولذا كان قوله : "أحببته فى الله " ؛أى أحببته من أجل ثواب الله تعالى . إنه يحبه فى الله تعالى وكفى ، و بالطبع تكون المكافأة الإلهيّة أن الله يحبّه كما أحبه فيه .

أول ما نلاحظه فى القصة هو مفهوم الحب . فالحب هنا مقرون بثواب الله وطاعته ، إنه حبّ سام يفوق الحب الذى تصنعه المصلحة أو الغريزة . الحب فى المفهوم الإسلامى عطاء بلا حدود ولا قيود ، فيه رغبة الخدمة الخالصة الصادقة للمجتمع الإسلامى على مستوى الفرد و الجماعة . الحب هنا لا ينتظر مقابلاً من المحبوب ، و فى تطبيقه العملى يبتعد هذا الحب عن الإعلان عن نفسه ، أو طلب الشهرة أو الوجاهة.

إنه حبّ الزاهدين الذين يحبّون فى صمت و يعطون فى خفاء ، لأنهم ينتظرون ثوابهم من المحبوب الأعظم . وهو ثواب يفوق كل ما لدى البشر من ثواب .

لقد اختص الله سبحانه بعض خلقه المؤمنين بحبّه .

قال تعالى : "....إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ "(المائدة :١٣)

و قال تعالى : "....إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ "(المائدة : ٤٢)

و قال تعالى : "....إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ "(التوبة : ٧)

و قال تعالى : "....وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ "(التوبة ١٠٨)

و قال تعالى : "إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ "(الصف ٤)

و الحب فى الله من أنبل أنواع الحب لأنه ، لا يرتبط بالمصالح الشخصية أو الأغراض الدنيوية ، لذا فجزاء صاحبه هو الفوز بمحبة الله ، و أنعم بها من محبة .

ومن القصة ندرك دور الملائكة فى التبشير بهذه المحبة . إنها تبشر المؤمنين الذين يحبون فى الله بما ينتظرهم من ثواب فى الآخرة .

وقد وصف القرآن الكريم المؤمنين بأنهم أشدّ حبّاً لله ، و الفارق بينهم و بين المنافقين يتضح فى قوله تعالى :"وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ "(البقرة : ١٦٥)

فالمنافقون يحبون من جعلوهم أنداداً لله ، أما المؤمنون فهم اشد حبّاً لله الذى يعبدونه دون غيره ، ولا يدينون بالولاء لأحد سواه ، لذا استحقوا حب الله ورعايته .

"....يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ "(المائدة : ٥٤)

محبة الله التى نفهمها من القصة ميدان كبير يتنافس فيه المتنافسون لأنه عطاء بلا حدود ، وبذل بلا مقابل ، و كلما فشت هذه المحبة قوى المسلمون وانتصروا فى دنياهم و أخراهم .

قوموا إلى الجنة -١

عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال :

بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بُسَيْسَة عَيْناً ينظر ما صنعته عير أبى سفيان ، فجاء وما فى البيت أحد غيرى ، و غير رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

قال : لا أدرى ما استثنى بعض نسائه فحدثه الحديث .

" إن لنا طِلبةً ، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا " فجعل رجال يستأذنونه فى ظهرانهم فى علو المدينة .

قال : لا ، إلا من كان ظهره حاضراً ".

فانطلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و أصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر ، و جاء المشركون ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

" لا يتقدّمَن أحد منكم إلى شىء حتى أكون أنا آذِنهُ "

فدنا المشركون ، فقال : رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

" قوموا إلى جنة عرضها السموات و الأرض "....

" حديث صحيح أخرجه أحمد و آخرون "

....

هذه القصة النبوية تدور فى إطار فى غزوة بدر ، و تقدم جانباً من جوانبها وما أكثر الجوانب التى تحملها هذه الغزوة المباركة ، التى أحدثت تحوّلاً خطيراً فى تاريخ الإسلام و المسلمين ، حيث انتقلت بالدعوة من حال المطاردة و الهجرة ، و الحصار و التآمر إلى حال المبادرة و الدفاع ، و إثبات الذات و الوجود ..

وفى السنة الثانية للهجرة ، و بدءاً من هذه الغزوة المنتصرة الظافرة ، صار للإسلام والمسلمين كيان يعترف به الأعداء و الخصوم ، و يقرّ به الحلفاء و الجيران ..

و أخذ هذا الكيان ينمو و يقوى و يتحول إلى رقم فى المعادلة السياسية والعسكرية على أرض الجزيرة العربية ..

لقد كان المسلمون قلّة بالنسبة للمشركين ، جاء نبيهم – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ، مهاجرين من مكة إلى المدينة ، يطاردهم المشركون ، و يقتفون أثرهم للقضاء عليهم ، ولكن الله أيدهم بأنصاره ، فاحتضنوهم فى يثرب ، و أقاموا معاً المجتمع الإسلامى الأول ، حيث صار للإسلام مسجد ، و صار المسلمون يقيمون الصلاة بلا خوف ولا فزع ، ويمارسون شعائرهم فى النور و العلن ، بعد أن كانوا عرضة للمطاردة و الملاحقة و الأذى ..

وفى هذه القصة النبوية ، نرى بداية المواجهة بين المسلمين و المشركين ، حيث علم الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن قافلة لقريش يقودها أبو سفيان بن حرب زعيم المعسكر المعادى للإسلام آنئذ ، قادمة من الشام إلى مكة تحمل البضائع و الطعام ..

و أذن الله للمسلمين أن يدافعوا عن دينهم و يؤلموا المشركين ، حتى يتوقفوا عن إيذاء المسلمين و ملاحقتهم ..

وكانت قافلة أبى سفيان أو العير ، أى الإبل التى تحمل البضائع و الطعام هى الهدف الأول الذى يقصده المسلمون لإجبار المشركين على الكف عن إيذاء المسلمين .

و القافلة هدف مهم للغاية لأنها تحمل مئونة قريش و لوازمها من البضائع و الأمتعة ، حتى تأتى قافلة أخرى بعد شهور أو عام ، وكان لابد أن يترصدها المسلمون ..

ومن ثمّ ، بعث الرسول – صلى الله عليه وسلام – بُسَيْساً ، واسمه الأصلى بُسَيْس بن عمرو ، و يقال ابن بشر ، وهو أنصارى من الخزرج ، ليتجسّسَ على قافلة أبى سفيان و يكون عيناً عليها ، ليرى كيف تسير ، و إلى أين تتجه ، و عدد أفرادها....إلخ .

و ذلك حتى يضع الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – الخطة الملائمة التى تحقق له ما يريد من مهاجمة القافلة ، و ضرب قريش فى مقتل .

و قد استعان الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالسّرية و الكتمان فى تخطيطه كما يقول أنس بن مالك رضى الله عنه – وهى أوّلية العمل العسكرى حتى يومنا هذا . فالعمل على المكشوف فى الحروب قد يهيئ للعدوّ فرصة الاستعداد لتفادى الهجمات المباغتة ، وتفويت الفرصة على المهاجمين فى تحقيق نجاح أو انتصار . ولذا كان حديث النبى – صلى الله عليه وسلم – حول الاستعداد و الخروج ، فقد استقبل بُسيساً ومعه أنس وحدهما ، حيث سمعا حديثه ، وربما سمعه بعض نسائه ..

ثم يعلن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه عن الخروج إلى ميدان القتال . و يقول : " إن لنا طِلْبَةً ، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا " .. ولنا طلبة ، أى طلبا و هدفاً و غاية ، ولم يقل الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – ماهو المقصود بالطلبة كى لا يشيع الخبر فيعرفه العدوّ و يتجنب المواجهة .

لقد أعلن أن لنا غاية معينة ، تقتضى ممن له ظهر ، أى راحلة ، سواء كانت من الإبل أو الخيل ، فليركب معنا ، أى فليسر معنا ، و يمضى إلى حيث نقصد .

وكان هناك من لا يملك ظهراً حاضراً فى اللحظة ذاتها ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم – كى يذهب إلى ضاحية المدينة ، و هنا يقصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أمره ، على من كان ظهره حاضراً ، أى مركوبه موجوداً ، لأن الأمر عاجل ويقتضى الخروج و السير سريعاً إلى الهدف المطلوب .

و انطلق الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – و أصحابه ، حتى سبقوا المشركين إلى بدر و انتظروهم هناك ، و حضر المشركون أو وصلوا إلى بدر ، و هنا خاطب النبى – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه :

" قوموا إلى جنة عرضها السموات و الأرض ".

و معنى قوموا إلى جنة ، أى استعدوا للحرب و القتال ضد العدو ، و خوضوا المعركة بروح الاستبسال الذى يؤدى إلى الشهادة ، و مصير الشهداء هو الجنة ، كما وعد رب العزة .

" وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ "

(آل عمران : ١٣٣ - ١٣٤)

و أعظم الإنفاق – بلا ريب – هو إنفاق النفس فى سبيل الله ، و دفاعاً عن دين الله ..

**** ****

قوموا إلى الجنة - ٢

رأينا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى حديث أنس يدعو أصحابه إلى القيام بواجبهم فى مقاتلة المشركين عند بدر، و عندئذ قال عمير بن الحُمام الأنصارى :

" يا رسول الله ، جنة عرضها السموات و الأرض ؟

قال : " نعم " .

فقال : بخٍ بخٍ.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :- " ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ ؟".

قال : لا و الله يا رسول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلها .

قال : " فإنك من أهلها ".

فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة .

قالت : فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم ، حتى قتل رضى الله عنه .

....

استعان النبى - صلى الله عليه وسلم - بالسّرية و الكتمان فى التخطيط لمواجهة المشركين عند بدر و أرسل بُسيساً يستطلع الموقف ، و يتجسس على الأعداء وهو أى التجسس أمر مشروع حين يكون على الأعداء ، و كشف أسرارهم و مواقفهم التى يمكن أن تضر بالمسلمين وتؤثر عليهم فى ميدان القتال ، أو على قوتهم بصفة عامة .

ثم إنه - صلى الله عليه وسلم - طلب ممن له مركوب - أى راحلة - أن يخرج فى الحال إلى حيث يقصد ، دون أن يصّرح بقصده حتى لا يعرف المشركون

مراده فيتجنبوا مواجهته ..و أوصى المسلمين حين سبق المشركين ، ووصل إلى بدر قبلهم :" قوموا إلى جنة عرضها السموات و الأرض "..

إن القيام إلى هذه الجنة إغراء ، يجعل كل مسلم يتشوق إليها ، و يسعى بكل ما يملك ليصل إلى بابها ، والتعبير كناية عن الشهادة فى سبيل الله ، التى يكون ثوابها جنة عرضها السموات و الأرض كناية عن اتساعها و عظمتها ، مما يعنى أن الدفاع عن العقيدة و الأوطان له قيمة غالية فى التشريع الإسلامى ، فقد فضل الله المجاهدين على القاعدين وجعل الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

و قد حرّك النداء النبوى الكريم للمسلمين بالقيام إلى الجنة الواسعة العظيمة عواطف أصحابه ، و جعل القصة تتصاعد فى حركتها نحو الذروة ، حيث جرى حوار مهّم ومؤثر ، بين عُمير بن الحمام ، و الرسول – صلى الله عليه وسلم – ودلالته تصب فى كيفية تطبيق النداء النبوى الكريم .

" قوموا إلى جنة عرضها السموات و الأرض ".

يبدأ الحوار بسؤال عمير : يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض؟ و كأن عميراً لم يصدق أو يستهول عظمة الصورة و ضخامتها للجنة الموعودة. ومع ذلك ، فإن إجابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – تأتى هادئة مؤكدة و قاطعة : " نعم " .

و هنا يقول عمير : بخٍ بخٍ . أى ما أحسن هذا الأمر وما أعظمه .

و يسأله الرسول – صلى الله عليه وسلم – عما يحمله على قول بخٍ بخٍ ، و هو يعلم أن المقابل هو تقديم الحياة فى ميدان القتال فداءً للعقيدة و الدعوة و الوطن .

فيجيب عمير : لا و الله يا رسول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلها . أى ما قلت هذه الكلمة الكررة بخ بخ ؛ إلا رجاء أن أكون من أهل الجنة التى عرضها السموات والأرض .

وهنا تكون البشارة النبوية :

" فإنك من أهلها ".

أى إن عميراً من أهل الجنة الواسعة العريضة ؛ بفضل الله .

و تتبدى قوة الإيمان لدى عمير ، حين يخرج تمرات من كيس النشاب أو السهام الذى يسمى قرن النشاب ، وراح عمير يأكل هذه التمرات و يقول : لئن أنا حييت حتى أنتهى من هذه التمرات فمعنى ذلك أن هذه الحياة ستكون طويلة ، وهو كناية عن شدة شوقه إلى الجنة الواسعة ورغبته أن يذهب إليها سريعاً قبل أن يتم أكل تمراته . وقد تحققت هذه الرغبة بالفعل حيث رمى عمير بما كان معه من التمرات ، و اندفع إلى ميدان القتال ، يقاتل المشركين بكل ما يملك من قوة حتى ينال الشهادة ، وقد نالها بالفعل ، و تحققت بشارة النبى الكريم – صلى الله عليه وسلم – بدخول الجنة الواسعة العظيمة التى عرضها السموات و الأرض .

إن غزوة بدر فى جوانبها المختلفة تقدم درساً عميقاً فى مجال الإيمان والعقيدة والتخطيط العسكرى ، و مواجهة العدوّ ، و تحقيق النصر و الشهادة .

وهنا جانب من جوانبها ترويه القصة النبوية ، حيث تصوّر السرّية فى جمع المعلومات ، ووضع الخطط و بناء الروح المعنوية التى تواجه العدّو بقلب حديدى لا يهاب الموت .

**** ****